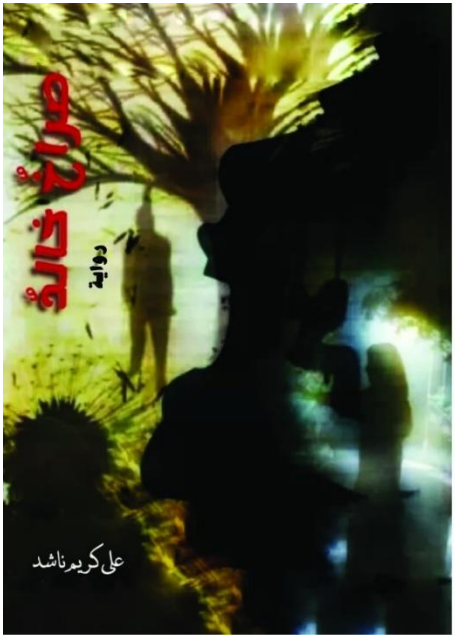

في مضامين حروفها، جازت لنا البوح بالكشف من جانب من زوايا مجتمع فيزيقي يظهر معاناة أسر، يكون المتسلط في ظلمها من أفراد الأسرة الواحدة حاملة في طياتها وبال الخذلان بكل مضامينه، خيانة النفس قبل خيانة الآخر، وإصفة في أحداثها دمار الأطفال قبل البيوت، ولفكك الأسر قبل المجتمع.

الطبعة الأولى / ٢٠٢١

لوحة الغلاف : الرسامة غدوى محمد

ISBN 978-91-89288-28-7

دار نشر رقمنة الكتاب العربي
Stockholm

صراخٌ خالدٌ
رواية

2021الطبعة الأولى
978-91-89288-28-7:ISBN
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 26-21 2021-02-12
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
هاتف: 0046790185518
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

صراخٌ خالدٌ

رواية

علي كريم ناشد

دليل المحتويات

الفصل الأول.....7
الفصل الثاني.....19

الفصل الثالث.....37
الفصل الرابع.....51
الفصل الخامس.....71
الفصل السادس.....85
الفصل السابع.....97
الفصل الثامن.....112
الفصل التاسع.....128
الفصل العاشر.....147

الفصل الأول

بان ارتعاش وديع وخوفه وانفضح اضطرابه وذعره بعد أن منحته منى خمس دقائق؛ ليقرر إما أن يمارس معها الجنس في بيته، أو أن تفضحه أمام الناس مدعية أنه قد تحرش بها يريد اغتصابها مستغلة وجودها في سيارته المركونة تحت الجسر في أول الليل الذي زادته غيوم الشتاء ظلاما، غير ملتفة لكثرة توسله بها وقسمه لها بأنه غير مرتبط ببشرى.

شعرتْ بالانتصار، وفرحت بالفوز، وعلت وجهها ابتسامة، وتعالت نظراتها، وقلتْ كلماتها وصارت لهجتها آمرة، وازدادت إصرارا على مطلبها، ولم يرق قلبها عليه وهي تراه مرعوبا مذعورا، وجهه متصبب عرقا، وشفتيه مرتعشتين، وعينيه مترقرقتين، ونظراته متذللة، وكلماته متلعثمة ومكررة في نقي ارتباطه ببشرى، وكثرة القسم، والتوسل والتذلل.

لم تدم فرحة انتصارها عليه طويلا، فقد ثار غضبها عليه لإخفاقه معها في ممارسة الجنس. لم يتوقف عن ارتعاشه واضطرابه وذعره حتى بعد أن دخل بيته وصار على سريره، ولم تنفعه كل محاولاتها معه واغراءاتها له. صرخت بوجهه كأنها تريد ضربه : كل الحق لزوجتك

حين تركت بيتك وذهبت لأهلها. أي رجل أنت! أ يعقل كل جمالي وأناقتي وأنوثتي لم تثرك! تبا لك.

أجابها متوسلا وشفتاه مرتعشتان : أقبلُ يديك كفى. والله أنا لم أزنِ كل حياتي، ووالله لو علمت زوجتي لصارت مشكلة كبرى بيننا. أقبلُ يديك، يا ست منى، كفى. أنا أخجل من الناس، وأموت حزنا لو خدشت سمعتي. أرجوك كفى.

منى : ما دمت لست رجلا، فما علاقتك ببشرى؟ لن أغادر بيتك حتى تخبرني.

- هي صديقة لي وأخت. عرفتها قبل شهرين حين أقلتها بسيارتي من ناحية المشرح إلى مرآب العمارة، بعد أن تعطلت سيارتها في الطريق أثناء عودتها من عملها في حقول النفط. وباتت في بيتي تلك الليلة؛ لأنها لم تجد سيارة تقلها إلى بغداد.
- وبتما معا على هذا السرير!
- لا، هي باتت في بيتي، وأنا بتُ في بيت أخي.
- أ يعقل أن تكون علاقة بشرى بك علاقة صداقة فقط!
- نعم، والله. ولا شيء بيننا سوى الصداقة. وهي وعدتني أنها ستتوسط بيني وبين زوجتي لإرجاعها إلي وو
- بلا شك أن زوجتك تركتك؛ لأنك ضعيف جنسيا.
- لست ضعيفا معها؛ فهي زوجتي وحبيبتي منذ سنة 1996، ولي منها طفلان.
- طفلان! ومتزوج منذ اثنتي عشرة سنة! إذن ما سبب تركها بيتك؟

- لا أعرف، هي تركت بيتي وذهبت إلى بيت أهلها منذ شهر آب، ولم أستطع إرجاعها؛ لذلك بشرى قالت لي إنها سترجعها.
- ضعفك هو سبب تركها بيتك منذ أربعة أشهر، وستطلب الطلاق منك، وتحصل عليه، ولن تنفعك بشرى في شيء، فما ينفعك هو علاجك لضعفك الجنسي.
- لا، هي تغيرت بعد أن صارت مديرة قسم في المستشفى، صارت تذهب إلى بيت أهلها وإلى السوق وإلى بيوت صديقاتها وأصدقائها دون أن تطلب إذنا مني وبلا خوف مني ولا احترام لي. بعد أن كانت زوجة صالحة.

أخمد إشعاع براءة عيني وديع وصدقه ثورة غضبها، ورقق ألمه وحزنه ووحدته كلماتها، وهيجت طيبته وحسن تعامله واتزانه طمعها به، وفجر إعراضه عنها وتمسكه باستقامته أنوثتها التي تعتز بها وجمالها الذي يخفي عمرها ويجعلها فتاة عشرينية لا أربعينية، وأثارت قصته فضولها لمعرفته أكثر، وألهب إخلاصه لزوجته واعتزازه ببشرى نار غيرتها التي لا تستطيع إخمادها ولا إضعافها ولا إخفاءها ولا السيطرة عليها، حركت صور طفلي وديع ياسمين وسيف شفقتها عليه، وزدادت أكثر هدايا الأطفال ولعبهم الجديدة التي لا تزال في علبها والتي عرفت من وديع أنه يشتريها لطفليه وهما متنكران له وكارهان بعد أن صارا مع أمهما. ليس هذا فقط بل عندما عرفت منه موقف أهله المصر على رفض زوجته، وتخييره أما أن يختار أهله أو زوجته.

أوصل وديع منى إلى بيتها، وهي مثقلة بفشلها في الحصول على ما تريد من معلومات عن بشرى، ومنكسرة بخيبتها في إيجاد المتعة مع وديع

الذي رأت فيه الرشاقة والأناقة والحيوية والمرح والاحترام والأمانة والثقة. دخلت بيتها ولا تزال بزينها وأناقتها اللتين اعتادت عليهما حتى وإن كانت في عطلة من عملها في شركة النفط، وحتى بعد أن تقدمت في العمر، وحتى بعد أن صارت مطلقة وازداد غناها. لم تعرف غير تناسق ألوان ملابسها ومكياجها وطلاء أصابها، وتناسق شكلها وملبسها مع روحها المرحة الطفولية المحبة للحياة غير المتناسق مع عمرها، كلها ميول للمتعة والترف.

عُرف وديع بأنه رجل بالغ عاقل عصامي مكافح متدين مثالي متواضع مخلص محترم منظم معتدل هادئ رومانسي رقيق حنون بسيط وفي وقور، متعال عن الماديات والمهاترات، مغرق زوجته بالغزل والحب، ومشبع طفليه بالعطف والحنان، من يراه تأخذه هيبته، ومن يدنوه يسره مزاحه، ويرسم البسمة على وجوه من حوله، ويفيد حديثه من يستمع إليه، ويسحر من يلتقيه ويحتل قلبه.

وصل الخامسة والثلاثين سنة ولم تنل منه الحياة، فلا زال وجهه صبوحا ولا تجاعيد، وشعره كثيفا أسود، وروحه مرحة متفائلة، وأناقته متجددة جذابة، وجسمه رشيق وسيم، نظرته مخيفة، وابتسامته بريئة، قوامه فارع، وصوته جهوري. هو من أسرة مثقفة متدينة، أبوه الدكتور هشام الطبيب المتقاعد، وأمه فاتن مديرة ثانوية متقاعدة. لا يعرف من حياته سوى عمله؛ كونه يؤمن بأن الحياة عمل ونجاح وعطاء، وعائلته؛ كونه يؤمن بأنها مسؤوليته والتي هي مكونة من سميرة التي تصغره بسنتين فقيرة الحال والجمال ربة بيت، تزوجها على أساس البساطة والهدوء من عائلة ريفية فقيرة انتقلت مؤخرا إلى المدينة، وابنته ياسمين

وابنه سيف الذي يصغر أخته بسنتين، يسكنون في بيت صغير بسيط في حي متوسط في مدينة ميسان.

حلمه تحقيق أمنية زوجته في الحصول على وظيفة لها بعد أن أجبرها على اكمال دراستها وبمساعدته بدءا من المتوسطة والإعدادية عن طريق الامتحانات الخارجة وانتهاء بتخرجها في كلية التربية قسم علوم الحياة؛ وتحقيق أمنية ياسمين وسيف في بناء بيت جميل يضم غرفة لكل منهما. وهذا ما جعله يعمل عملا إضافيا في المساء في أحد المكاتب الأهلية بكل جد ونشاط وذكاء بعد أن ينهي عمله الوظيفي الذي هو مهندس في بلدية العمارة.

اعتادت سميرة على مفاجئات زوجها وديع المفرحة لها، ولكنها هذه المرة فرحت كثيرا بمفاجئته لها بكتاب تعيينها في مستشفى في نفس عام تخرجها في الكلية سنة 2006. واعتادت على أن يوصلها وديع إلى محل عملها (المستشفى) ثم يذهب إلى عمله (البلدية). وبعد سنتين نالت منصب مدير قسم في ذلك المستشفى. وبذلك زاد راتبها الشهري. وهي في كل ذلك راتبها لها هي وحدها؛ كونه متكفل بكل مصاريف بيته وطفليه.

ولكنها حين صارت مديرة تغيرت تغيرا واضحا كأنها صارت إمبراطورة طاغية ومن مجتمع منفتح منحل أو مجتمع غجري، فقد بدأت تميل للمبالغة في تزيين نفسها بارتداء الملابس الجميلة ذات الألوان البراقة الزاهية، وكثرة المكياج المبالغ فيه، والتعطر المثير، وتقمص شخصية الأميرات في المشي والأكل، واختيار الكلمات وطريقة الكلام، وأسلوب التعامل مع الناس، وحب نفسها والتفاخر والتعالي ماسكة بيدها جوالها الحديث ذا الرنة الرومانسية، مخالطة الرجال وكثيرة المزاح والضحك معهم. وبالغت أيضا في تصرفاتها المفتعلة الخانقة، وأسلوبها

المزيف المتعالي، وكثرة تعجرفها وكبريائها مع زوجها الكادح المتعب من أعباء الحياة. وزجها وديع منذهل من جسارتها وجرأتها ووقاحتها.

على الرغم من خلو الشارع ووضح نهار شهر آب لسنة 2008، تسببت غفلة وديع وعدم تركيزه في سياقته لسيارة في حادثة كادت أن تودي بحياة شيخ قروي ماش بالقرب من الرصيف لولا انتباه الشيخ في اللحظة الأخيرة وابتعاده عن سيارة وديع. نتج عن تلك الحادثة تعارف بينهما، وقوي هذا التعارف ومتن. وصار وديع يقضي يومي الجمعة والسبت مع الشيخ علي وزوجته رابعة، في بيتهما المطل على النهر في بستان واسع مخضر تكثر فيه الأشجار والحيوانات، قريب من ناحية المشرح.

ذلك البيت الواسع الجميل بيت المجد والشرف والعز والجاه والرجولة والكرم لا يخيب من قصده ولا يُظلم من أحتكم عنده؛ والذي تزدحم فيه الناس لكرم أهله ورجاحة عقولهم وصدق قولهم وفعلهم بدء من أجداد الشيخ وانتهاء به؛ لا ينصرف عنه الرجال إلا في ساعة متأخرة من الليل، فقد اعتادوا عليه منذ سنين لحل مشكلاتهم ومناقشة قضاياهم وتسلية نفوسهم كما اعتاد آباؤهم وأجدادهم على مجالس آباء الشيخ وأجداده. وما كان الشيخ إلا على نهج آباءه، فهو الذي يصول ويجول في المجلس قاضيا بارعا بين الناس، وحاكما عادلا، وأميرا مطاعا، وقائدا محبوبا، ومحدثا لبقا، ومرشدا موجها، ذكيا فطنا، صريحا واضحا، مستشهدا بالكثير من الأمثال والحكايات والحكم والأقوال. وكذلك فأن عقم الشيخ وغناه المادي ساعداه على احتضان الناس.

عوض الله الشيخ حب الناس بدلا عن إنجابه للأطفال، ورزقه بزوجة كسبت منه رجاحة العقل وموعظة الحكماء وحفظ الأقوال والأشعار،

وأكتفت به من دنياها أبا محبا وأخا غيورا وزوجا وفيا وحبيبا مخلصا ومعلما مفيدا ورفيقا مسليا. لا زال ظهرها أقل انحناء من ظهر زوجها، وسواد رأسها أكثر من سواد رأسه. ولا زال الوشم براقا جميلا على يديها وقدميها وجبينها مرفرفا كعلم للتقاليد ومشيرا إلى هويتها الجنوبية

انتهى الأسبوع الثاني وما زال وديع مقاطعا بشرى على غير عادته منذ أن عرف أحدهما الآخر. فشلت كل محاولات اتصالها به. لا تعرف سبب مقاطعته لها سوى أنها تشك في زميلتها منى بعد أن تركتهما معا أمام المكتب الهندسي الذي يعمل به وديع. فتوجهت من محل عملها من حقول النفط الحدودية إلى العمارة حيث يسكن وديعا ويعمل، وأثناء الطريق بالقرب من ناحية المشرح رأت سيارة وديع تتوجه نحو بستان، فتبادر إلى ذهنها ما أخبرها به وديع وهو أنه يقضي عطلته في بيت الشيخ علي وزوجته رابعة. فتبعته ودخلت بعده، وجدته جالسا مع الشيخ وزوجته.

كان وديع يخبر كلا الطرفين عن الآخر على الرغم من عدم لقائهما؛ لذلك عرفت بشرى الشيخ وزوجته، وهما عرفاها وكنياها بكنيتها (أم عمر). وعمر هو ابن بشرى الذي هاجر إلى أمريكا، وترك أمه تعيش وحيدة في الأعظمية من بغداد بعد أن مات زوجها المهندس عبد الرحمن سعدي.

تجاوزت الخمسين سنة وكلها طاقة وحيوية ونشاط في حياتها وعملها (مهندسة في شركات النفط)، فاتنة متأنقة متحضرة متحررة محبوبة ودودة ذكية لبقة واثقة بنفسها مؤمنة بتفكيرها معتدة بآرائها تعشق حريتها، لا تثق بسهولة وإن وثقت وثقت تماما، تفرض هيبتها على الجميع. طويلة

وزنها زائد قليلا، تمشي بدلال وخيلاء، وتقف بفخر واعتزاز، بشرتها شقراء، وجهها لم تغيره السنون كثيرا، الحاجبان مشذبان بعناية والجفنان مسبلان ينتهيان برمشيها الكثيفين.

لاحظ الشيخ الحيرة في وجه بشرى والتساؤل عن سبب ابتعاد وديع عنها، ولاحظ أن وديعا غير طبيعي ولم يقتنع بعد بكلامه بعد أن ناقشه وحلل الحادثة له وبرء بشرى من فعلت منى. التفت الشيخ إلى بشرى، وأخبرها أنها بعد أن زارت وديعا ومعها زميلتها منى مساء الخميس. قد أخطأت حين تركتها معه وذهبت؛ لأنها خدعت وديعا وأوقعته في الحرام، فبعد أن طلبت منه أن يوصلها إلى بيتها في حي الشبانة. طلبت منه الوقوف تحت الجسر، وبعدها هددته بأن يمارس الجنس معها أو يخبرها عن علاقته بك، وإلا فإنها تفتري عليه وتفضحه أمام الناس مدعية صارخة أنه تحرش بها وضايقها. ولهذا السبب نزعج وديع وغضب منك. بكت بشرى، واعتذرت من وديع.

لاحظ الشيخ أن وديعا لا زال مضطربا، ثم جلس في زاوية، ووضع رأسه بين رجليه. فأسرعت إليه الحاجة : ماذا يا ولدي؟ أخبرني بالله عليك. أخبرني.

وديع : اليوم رأيتها في مكان، كنت قد رأيت فيه صديقتها مع حبيبها.

الحاجة : أكمل وماذا رأيت بعد؟

وديع : رن هاتفها وكانت نغمته أغنية (ما في أعيش إلا معك، ما في أكون إلا لك). تصور، يا حاج، إنها قد خصصت له هذه النغمة.

- ومن قال لك إنها نغمة خاصة له؟ فقد تكون نغمة لهاتفها.
- ولكن لماذا هذه النغمة الآن؟
- يا بني، إن زوجتك سميرة إما خائنة، وبذلك تطلقها وتتزوج امرأة عفيفة، أو أنها ليست خائنة وعليك إرجاعها إلى بيتك.
- بهذه السهولة، يا حاج! كيف؟

- طيب، يا وديع، اقتل زوجتك وأدخل السجن. وبذلك ضيعت نفسك وأهلك وأولادك، وفضحت نفسك وأهلك وأولادك. اقتلها يا أيها المنتحر المضحي بنفسك وأهلك وأولادك.

قطع صوت بشرى حديثهما، سبق دخولها إليهم بعد أن خرجت تتمشى في الحديقة : من يقتل من؟ ولماذا؟

الحاج : ماذا يا أم عمر؟

- ماذا، يا حاج؟ لماذا القتل؟ وعلى ماذا؟
- لا شيء ولا قتل، يا أم عمر.
- أنا ابنتكم وأختكم. والله لن أخونكم ولن أخذلكم. ولن أتواصل معكم ما دمتم لا تثقون بي. صارحوني بكل شيء، وإلا فأنا غريبة ولست محل ثقة.

وديع : أرجوكما أخبراها بأنها أختي ومحل ثقتي.

الفصل الثاني

تسابقت قدما سميرة للوصول إلى موظف الخدمات (خريبط)[1] الذي صرخ عليها، وهو على بعد ما يقارب عشرة أمتار عن مكان وقوفها مع

[1]- اسم علم قروي.

زوجها وديع تاركة إياه في ساحة المستشفى التي تعمل به. وكانت صرخة كلها غضب عليها وعنف، هي كلمة واحدة آمرة موجهة إلى سميرة "تعالي" وبوجه مشدود وعينين مفتوحتين وإشارة يد قوية عنيفة تومئ إليها بالمجيء. صرخة جعلت سميرة كأنها جندي خائف مطيع لآمره منفذ لأوامره؛ وجعلت وديعا صامتا مستغربا مذهولا منعقد اللسان كالخشبة، لا يُفرق بينه وبين التمثال إلا ارتعاش أصابعه، وإصفرار لونه وتعالي أنفاسه.

لم تدم سكرة وديع وهلعه ووحدته وسكوته طويلا، فقد أنهى خريبط حديثه معها وتركها وانصرف، فرجعت إلى وديع، وسرعان ما تلاشت ابتسامتها، ورجع غضبها متطايرا متوجها إليه كأنه رشقة سهام، بان كرهها كأنه وحش، وكأنها تريد أن تقتص منه وتثأر كما كانت قبل الصرخة. بادرته بالكلام، بقولها : ماذا تريد؟ أنا أسألك، ماذا تريد؟

- كيف استطعتِ الذهاب إليه! ولماذا صرخ موظف الخدمة عليك!
- هو سألني عن بعض الوثائق التي تخص العمل.
- كيف يكلمك بهذه الطريقة المشينة! وكيف استطعت تلبية نداءه والذهاب إليه؟ وما عرفه هو بالوثائق! وما علاقته بالوثائق؟ وو
- هو يسأل فقط، وكفى.
- يريد أن يسألك وهو يصرخ عليك ويهينك! وو
- أنا مشغولة، ووقتي لا يسمح لي. فإن أردت رجوعي إليك، فلي شروط يجب أن تنفذها وإلا فلن أرجع لك.
- أي رجوع! وأي شروط وأراذل الناس وأتفههم وأسخفهم وأوسخهم يجرؤ عليك، وأنت مطيعة وفرحة!

- ليس لدي ما أتكلم به معك، فاذهبْ فلقد قلتُ لك كل ما لدي، وانتهى كل شيء، وتذكر أن لي شروطا.

قالت جملتها الأخيرة وهي تمشي تاركة إياه صريعا غير مهتمة لآلامه، ولا مكترثة لنزيفه. ذهبت إلى قسمها دون حتى أن تريحه برصاصة الرحمة. وبقي وحيدا لا يشعر بأشعة شمس آب في ساحة ذلك المستشفى الذي تعمل به كوحدة من يواجه موته تراوده كثرة الأسئلة، وتذبحه غرابتها، ويغلب عليه شرود ممزوج بحيرة، وتزاحمه المتناقضات، ويقتله الاستغراب، ويغلو بداخله بركان هائج من غضب شديد. ولا تزال المفاجئتان الصادمتان له (صرخة خريبط، واستجابة سميرة لها) تكادان تفقدانه وعيه. وبعد أكثر من ساعة، بدأ يشعر واسترد وعيه ورجع إليه عقله.

بدأ ينظر يمينا وشمالا باحثا عن موظف الخدمات خريبط. صار ينظر إلى وجوة المارة مما أثار خوفهم وفضولهم، حيوه وكلموه إلا أنه لم يلتفت إليهم قط. وبعد أن عجز عن إيجاد موظف الخدمات، وردت قدح فكر على ذهنه فتوجه إلى ما ستفعله زوجته حين حصول مشكلة بينه وبين موظف الخدمة. جالت بفكره فكرة مرعبة حول موقف زوجته في حال حصول مشكلة بينه وبين موظف الخدمات؛ لذلك ترك ساحة الدائرة وخرج منها تاركا زوجته مع من أهانها وخضعتْ له. لم يستطع الوصول إلى بيته، جلس في مكان قريب من باب خروج موظفي المستشفى، وما إن انتهى وقت الدوام وإذا بسيارة خريبط قد أقبلت وسميرة بها.

وصل إلى بيته الموحش قبيل المغرب. ولا زالت أسئلة كثيرة تتوافد على ذهنه، وعواصف غاضبة تعصف برأسه، فانصرفت إلى التفكير وإثارة الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها مرددا : ماذا يحدث؟ ما هذه

التناقضات القاتلة! تريد منه احتراما وتقديرا وهي ذليلة مهانة لغيري! هل فعلا هذه هي سميرة! متى تعارفا أ قبل الصرخة أم من خلالها؟

انقضى ما تبقى من يوم الخميس يوم الصرخة 2008/8/7، ويوم الجمعة ولا زل وديع حبيس غرفته، لم يخرج منها حتى ظهر يوم السبت وإذا بسميرة تتصل به قائلة له : اسمعني أنا لا أريدك حتى ولو وافقتَ على كل شروطي فقد كرهتُكَ، ولا تأتِ إليّ ثانية فلا أريد أن أراك. انتهى كل شيء بيننا. لم يجبها بشيء قط كأنها هي صرخة أخرى له كي ينذهل ويتحول إلى تمثال متنفس. فقد فرح بالاتصال ظانا أنها ستوضح له أمر الصرخة والخطأ الكارثي الذي حدث، وستعتذر منه، ستخبره أنها تريده فيثأر للكرامة بمهاجمته لخريبط.

هجر النوم عينيه، وغاب النعاس عنه فخرج مسرعا من بيته فجر يوم الأحد متوجها إلى بيت أهل سميرة. انتظر خروجها وهو جالس في سيارة أخيه التي لا تعرفها، والتي ركنها في مكان يستطيع رؤية سميرة إذا خرجت. وإذا بسيارة خريبط تقف قريبة من بيت أهل سميرة، وفيها ثلاث موظفات. وإذا بسميرة تركب في المقعد الأمامي. ووديع لا يكاد يصدق ما يراه فقد كان واثقا من أنها خجولة من الرجال. ثم قل عدد الموظفات وأخيرا، لم يبقَ أحد مع سميرة وخريبط. فقد انفردا ببعضهما، وصار سائقا لها وحدها كأنها تغار عليه من الموظفات فطلبت منه أن يطردهن ويبقى لها وحدها كما طردت هي وديعا وبقيت له وحده. كثف مراقبته لهما، فبعد أن تشرق الشمس يسرع إلى مراقبة بيت أهلها، ثم يذهب إلى عمله، وبعد أن ينهي عمله، يرجعُ للمراقبة حتى إنه عرف مكان بيت خريبط، وعرف أن له أربعة أطفال من زوجة أكثر قبحا من سميرة، وأقل منها مالا وخضوعا وخنوعا إلى خريبط، وأكثر منها أنوثة وكرامة وعزة نفس أمام خريبط، وتتفوق عليها بالخجل والحشمة والطاعة لزوجها خريبط.

كان وديع يقف منتظرا زميله قريبا من بيت خريبط الذي هو بيت تجاوز بسيط جدا لا يكاد يحمل نفسه فضلا عن أن يحتضن ساكنيه، وفي

منطقة نائية على أرض تابعة للدولة. ففقر حاله قد فرض عليه استئجار بيت رخيص جدا، وبمساحة أقل من مئة متر، فيه بناء من طين وسقف من أعمدة خشبية، وجداره الخارجي من قماش وأوراق وبعض الصفائح المعدنية المتصدأة.

أكثر وديع التركيز على أطفال خريبط، فلاحظ أن الولدين (حردان ومكي) يكثران اللعب في أغلب الأوقات أمام باب بيتهم في الشارع الممتلئ بالأوساخ والنفايات والقطط والأغنام والأبقار والبعوض والذباب. بينما البنتان سعدية وخالدية مع أمهما لا تخرجان كثيرا من البيت. حسد وديع خريبط على حشمة زوجته غنيدة وطفلتيه[2].

****

صباح ذات يوم في الساعة (50 : 6)، كان يراقبهما على عادته. وإذا بها تخرج من بيت أهلها فرحة مبتسمة متمايلة متراقصة في مشيتها كأنها ترقص فرحا على موسيقى رومانسية مفجرة لأنوثتها، متوجهه إلى الشارع الرئيس. اندهش من خروجها المبكر كاندهاشه من زينتها الفاضحة وألوان ملابسة البراقة ومكياجها المبالغ فيه وعطرها الذي لم يشمه فيها سابقا والذي عطر الأماكن التي مرتْ بها. ما كادت أن تصل إلى الشارع الرئيس إلا وخريبط قد وصل إليها فرحا مبتسما هو الآخر. فركبتْ معه في سيارته البسيطة القديمة المستهلكة الوسخة، وانطلقا إلى المستشفى، وبعد أن أوصلها خرج من المستشفى وتركها فيها. وقبل الساعة الثامنة والنصف، وصل خريبط ومعه مجموعة موظفات، ثم دخل المستشفى وبقي فيها. وفي أحد الأيام، بينما كان يراقبهما رآها واقفة في الشارع الرئيس منتظرة خريبط، ولم يحكم سيطرته على غضبه وفضوله وحبه، فأحست به ورأته. ومباشرة اتصلت بخريبط تطلب منه الإسراع

[2] - غنيدة : اسم علم قروي

إليها بالمجيء كأنها تحافظ على نفسها من وديع نفسه. فتراءت له أنها تستنجد من عدوها ببطلها وفارس أحلامها خريبط؛ لينقذها.

كانت تنتظر خريبط بعد نهاية وقت عملها الرسمي بما يقارب نصف ساعة أو أكثر قليلا؛ كونه مشغولا بأعمال أخرى، ولا بد أن ينهي كل أعماله أولا ثم يوصلها إلى بيت أهلها، ومع ذلك فهي تنتظره بكل رحابة صدر، وهو المتفضل عليها وهي المتذللة له، المهم عندها هو أن يبقى خريبط يوصلها؛ على حين أنها كانت تقول لوديع : أنا أخرج من دوامي الرسمي متعبة، ويجب أن لا تتأخر علي حتى ولو خمس دقائق. وإلا فإنها تغضب وتتكلم كثيرا عن التعب والجهد في العمل وعدم الاهتمام والشعور بها من قبل وديع.

لا زال وديع منشغلا بمراقبة سميرة وخريبط، ودائما يسأل نفسه، وهو في غاية الاستغراب : كيف تفكر سميرة؟ وما الذي يعجبها في خريبط؟ وأين رجولة أهلها؟ وإذا كانت تخدع أهلها فكيف لا تخدع زوجها؟ أو أنها تخبر أهلها، ولكنهم بلا شرف؟ لا يمكن لأهلها أن يقبلوا بما تفعله سميرة أبدا، ولكن يبدو أنها لم تخبرهم بصرخة خريبط أم ماذا؟ وكيف تخبرهم وهي قد لبت نداءه ومثلت أمامه ذليلة! ولكن كل ذلك تحطم. فقد رأى أخاها راكبا في سيارة خريبط. وبعدها رأى أختها في سيارته. فعرف أنه قد تطور التواصل وكثرت المواصلات وأصبحت عائلية، أي مشوار لها أو لعائلتها تتصل به مباشرة وفي أي وقت وأي مكان تاركة كل سيارات الأجرة. وتنتظره طويلا في أي مكان حتى ولو في الشارع حتى ولو تأخر ساعة؛ كي يقلها هو لا غيره، وأصبحت الناس تعرفه بها جيدا كما تعرفها به جيدا.

هذا هو البلاء الذي حل بوديع، يا صديقة وديع، يا أم عمر، وها هو وديع يقف أمامك ويكلمك متعبا حزينا مكسورا معاتبا ربه قائلا : لماذا، يا ربي، فأنت تعلم إني حافظ لأعراض الناس، ولم أعتدِ عليها قط؛ أنت تعلم بحالي، يا ربي، أسعى جاهدا لإراحة زوجتي وطفلي. ما تقصيري معها؟

لماذا هانت عليها العشرة وخانتني؟ لماذا يا سميرة، لماذا؟ هذا البلاء الذي جعلني أغفل عن مهم أمري، وكدتُ أدهس الشيخ في أسبوع الصرخة.
كسرت بشرى صمتها ودهشتها بطرح سؤالا على وديع : لماذا ذهبت إليها وهي في عملها؟ ماذا جرى بينكما قبل ذهابك إليها؟
أجابها : كل ما جرى بيننا هو أنني عدتُ ذات ليلة من عملي الإضافي متعبا، فلم أجدها في بيتي، فاتصلت بها هاتفيا سائلا عنها، أجابتني أنها في بيت أهلها، تريد المبيت عندهم هذه الليلة. وطلبت مني أن لا أجادلها ولا أعكر مزاجها؛ لأنها قررت وانتهى الأمر. فسألتها كيف تقررين وحدك وتخرجين دون علمي؟ وما هذا التغير الجديد في تصرفاتك؟ فأجابتني أنها حرة، ولا تعكر مزاجي. وانهت المكالمة، ومرت ثلاث ليالٍ وهي عند أهلها، وأنا في بيتي وحيدا لا أعرف السبب، سوى أنني أشك بأنها قد انزعجت قليلا من كلامي في اتصالي الأخيرة معها.
فقلتُ في نفسي : لا مشكلة بيننا، وإن كانت مشكلة فهي صغيرة جدا، وسترجع إلى البيت اليوم أو غدا. ولكنها أصرت على البقاء في بيت أهلها. اتصلتُ بها هاتفيا للتفاهم معها ولكنها لم تجبني قط. واتصلت بأختها وبعض صديقاتها ولكن لا فائدة فسميرة مصرة كل الإصرار على تجاهلي؛ لذلك لجأتُ إلى الذهاب إليها وهي في عملها بعد أن أنهيتُ عملي مبكرا. وصلت إليها، وهي في ساحة المستشفى الخالية من الناس. فبادرتني بالكلام قائلة : ماذا تريد؟

- يا حبيبتي، جئتُ؛ لأتفاهم معك على حياتنا، فقد تركتكِ ترتاحين عند أهلكِ، ولا أستطيع تحمل غيابك عني أكثر.
- هذا كان في الماضي، أما الآن فلن أرجع لك إلا بكرامتي وقيمتي، ويجب أن تنفذ شروطي.

- شروط! أي شروط؟ وعلى ماذا الشروط؟ وعلى من تشترطين؟ وما بها كرامتك وقيمتك؟ فأنتِ حبيبتي وزوجتي وأم طفلي.
- إذن لن أرجع معك.
- ماذا تقولين أي كرامة؟ أنت تعرفين أني أحترمك وأجلك وأعمل ليلا ونهارا؛ لأسد مصاريفكم. بل وتعرفين أني أحترم أهلك أيضا، وكذلك أنت تعرفين أن الجميع يعرف ذلك. أنا لم أسيء لك قط. أين إساءتي؟ وما بها كرامتك؟
- يجب أن تعرف وتتأكد من أنني مرتاحة عند أهلي، ووو

فجاءت استجابتها المفاجئة السريعة لتلك الصرخة وقطعت حديثنا، فرأيتها مهرولة خائفة مذعورة مرعوبة ومبتسمة فرحة راضية مستبشرة لتلبية نداء خريبط لها كأنها جندي أسير ماثل أمام عدوه الظالم الذي سيفتك به، وفرحتها به كفرحة عاقر تلد توأم ذكور.

لم يعطِ الشيخ علي ورابعة فرصة لبشرى لتقول تحليلا أو تعليقا على ما قاله وديع، ولم تفهم ما يريدانه، فأجاب الشيخ وديعا : يا ولدي، قلنا لك سابقا إن زوجتك ليست خائنة، وأنت تحبها وتغار عليها كثيرا. وأنت تؤكد أن زوجتك تحب الشكليات والمظاهر، فكيف ترتبط بموظف الخدمات الوسخ الوضيع. أنت بالغت في الموضوع، وغرتَ أكثر من الحد اللازم، وهذا يثبت لنا حبك الصادق لها، وتمسكك بها. صح يا حاجة رابعة؟

- نعم، كلامك صحيح، هي ليست بخائنة، وهو يحبها ويغار عليها، وهي تحاول إثارة غيرته بما تفعل ليس إلا.

ختم الحاج مشكلة وديع بقوله : يا بني، افهم أن الحياة بلاء، لم يسلم منها حتى الأنبياء؛ لذلك يجب أن تكون رجلا جلدا قويا صابرا. هذا إن صحت خيانة سميرة بيد أني أراها ليست بخائنة كما أخبرتك من قبل.

الحاجة : خريبط رجل أرعن، لا يعرف الاحترام، وأسلوبه متخلف؛ وسميرة قد خافت من حدوث مشكلة بينك وبينه، وبالتالي ستكون مشكلة لها هي، وأمام زملائها وعامة الناس. فلو لم تذهب إلى خريبط حين صرخ عليها لهجمت أنت عليه، أو أن خريبط سيقول أو سيفعل شيئا آخرا لرعونته؛ فحسمتْ الموقف وانهتِ المشكلة.
الحاج : ولذلك أنت لم تجده بعد أن صرخ عليها؛ لأنها وبخته، وأمرته أن يغيب وجهه عنك.
استغربت بشرى، وقالت : ولكن هي تريد منه المبالغة في احترامها، وتردد قيمتها وكرامتها، فكيف سمحت له بالصراخ عليها؟ وكيف بقيت معه بعد أن صرخ عليها؟
الحاج : تريد منه احتراما؛ لأنه زوجها، وهذا طبيعي، أما خريبط فبلا شك تريد منه الاحترام، ولكنه أرعن أحمق، لا يحسن التصرف؛ لذلك فعل خطأ كعادته. ويبدو أنها وبخته وعاقبته وقست عليه؛ ولذلك هو اعتذر لها وندم وتذلل لها، فأعدته خادما لها، وقبلت بخدماته وسمحت له بأن يوصلها إلى حيث تشاء كسائق لها.
الحاجة رابعة : فعلا أنت تحبها حبا خياليا، وتغار عليها كثيرا، ولو كنتُ أنا مكانها لشكرتُ خريبط على فعله؛ لأنه أثار غيرة زوجي عليّ، وبينَ لي حبه الجنوني، وحكمته في عدم إحراجي مع خريبط وزملائي في عملي.
الحاج : أما عن اتصالها بك في يوم السبت، فهي رأت في عينك الشر، فخافت من مجيئك إلى المستشفى؛ كي لا تحصل مشكلة. وفي الوقت نفسه، قد يكون أنها أرادت إثارة غيرتك عليها؛ على أمل أن تنفذ لها ما طلبته وترجعها سريعا. وما يؤكد ذلك هو خروجها من بيت أهلها متوجهة إلى الشارع الرئيس؛ كي يوصلها خريبط؛ كونها تعرف أنك قد غرتَ وانفعلتَ، ولن تترك موضوع الصرخة، فاستغلت كل ذلك؛ لتجعلك تنفذ لها ما تريده وترجعها سريعا. معنى ذلك أنها تحبك وتريدك. أليس صحيحا يا حاجة رابعة؟

الحاجة رابعة : نعم، يا شمعة بيتي، كلامك كله صحيح ودقيق، ولم تترك لي ما أقوله.
وديع : لو كانت فعلا تحبني، لما اشترطت عليّ شروطا.
الحاج : هي تحبك، وتعرف أنك تحبها ومتعلق بها، فتريد أن تتباهى بحبك أمام زميلاتها وصديقاتها وخصوصا بعد أن صارت مديرة.
الحاجة رابعة : على أية حال، فلنصبر قليلا ونرى ما سيحدث، فإن كانت سميرة بوضع يرضينا فسأرجعها لك، يا ولدي، وإن لم تكن مثلما نريد، فسأزوجك بمن تُحسد عليها؛ فأنت إنسان خلوق، وشاب وسيم، وموظف محترم، وهناك الكثير من البنات يحلمن بك، وأنا أمك الآن.
الحاج : يجب أن لا تتسامح معها كثيرا، بل يجب أن تتعالى عليها وتتكبر وتتجلد، ويجب أن تجعلها تسعى دائما لإرضائك، وإياك ثم إياك أن تتصل بها تليفونيا، أو تريها وجهك.
بشرى : أنا متفاجئة مما أسمعه منكما، ولا أعرف ما أقول.
الحاجة رابعة : انظري إلى وديع، فقد فرح بهذا الكلام لشدة حبه لزوجته سميرة. يا وديع، يجب أن تسعى إليك هي أولا، ويجب أن تعرف قيمة نفسك. هل تعلم أن الكثير من البنات يحلمن بك؟
وديع : بل لقد شعرت بالخجل منكما ومن نفسي في عدم الرد عليكما، وفي بكائي، وشكي بزوجتي.
الحاج : لا، يا بني، فنحن أهلك، ولا خجل بيننا. الحمد لله أننا نجحنا في إسعادك، وإجلاء الهم عنك، وإعادتك إلى الحياة التي انحرمت منها. واعلم أن أكبر المشكلات العويصة لها حل واضح ولا مفر منه. يجب أن نتعلق بالله ونسلم له، ونؤمن بحكمته ونقبل به حكما ووكيلا عنا. فيا ولدي، تعالَ على الجراح، وأرضَ بحكم الله لك، واستغنِ بنفسك وبربك تعش سعيدا.
وديع : ولكن أنا متألم؛ لأنني إنسان مستقيم مع نفسه ومع عائلته، وحبي لزوجتي يجعلني أرى أن زوجتي تحبني؛ لذلك أتأمل رجوعها لي أو اتصالها بي، وأبحث عنها في الطرقات لعلي أراها بالمصادفة أو بالمصادفة المفتعلة، فأرى ابتسامتها التي أعشقها وأتوق لها، فقد ملت إليها

بالحب، وملكتني به، وقيدتني بالعشرة، فما كنت أتذكر مواقفها السلبية وكلامها الجارح؛ لأنني أحبها حب عاشق ولهان، وزوج مفتون مغرم بها. حبي لها حول كل عيوبها محاسن، وجعلني لا أصدق خيانتها، وجعلني أغار عليها.
الحاجة : كلامك هذا خطأ؛ الآن علاجك هو العيش وحدك بعيدا عن حبك لزوجتك وغيرتك عليها وشكك بها. ودعنا نرى ما ستفعله هي وما سيحدث.
وديع : ولكن أنا مشتاق لسيف وياسمين. ووو
الحاج : كفاك ضعفا، وكن رجلا. ماذا لو ماتا لا سامح الله، هل ستبكي مثل النساء؟ كفى، يا وديع، وأخبرني ما موقف أهلك من زوجتك؟
وديع : أنا لم أخبر أهلي بشيء قط، ولن أخبرهم أبدا. وسميرة جعلتهم يكرهونها ويبتعدون عنها وخصوصا في الفترة الأخيرة، فهي لا تحرمهم ولا تسلم عليهم حتى على الرغم من أنهم يتوددون لها ويحبون ياسمين وسيف.
الحاج علي : يا حاجة، من سيوصلك إلى السوق؟
الحاجة : طبعا وديع.
الحاج : حسنا، توكلا على الله الآن، ولا تنسي ما أوصيتك به.
الحاجة : إن شاء الله، يا حاج، هيا، يا بني.

****

ودعت بشرى الحاج والحاجة ووديع، وذهبت في مشوار لها، وهي مدركة أن الحاج والحاجة قصدا إخراج وديع مما هو فيه من مأزق، وأن هناك اقتراحا ستقترحه الحاجة على وديع. ركبت الحاجة بجانب وديع في سيارته، وتوجها إلى سوق العمارة، بعد الساعة العاشرة صباحا. كلمته الحاجة : يا بني، أريد أن أتناول غدائي اليوم في مطعم.
وديع : نعم، وعلى حسابي، يا أمي.

- طبعا على حسابك وإلا فلن أزوجك ببنت جميلة.
- تزوجيني!
- نعم، أخبرني ما رأيك بسندس؟
- يا أمي، يا حاجة، أنا أحب سميرة ولي منها طفلان.
- يا ولدي، فقط صفها لي، دعني أعرف ذوقك.
- طيب. هي شابة في ريعان شبابها، رشيقة وأنيقة وجذابة، وكلامها معسول، وأسلوبها رقيق، وابتسامتها أنوثة، ونظراتها ودودة.
- ما شاء الله. تستطيع وصف النساء والتغزل بهن. ويبدو أنها عالقة في ذهنك، لم تنسها.
- هي جميلة وأنيقة ومحبوبة وبريئة.
- ما رأيك في أن أخطبها لك؟
- لولا حبي لسميرة، لخطبتها فورا والله.
- لا مشكلة فلتكن زوجة ثانية. فهي موافقة.
- سميرة ستغضب وستكبر الفجوة بيننا. وأنا أحبها ولا أريد غيرها. فسميرة هي حبيبتي وشريكتي وأم طفليّ. ولا أستطيع أن أتصور نفسي مع امرأة غيرها أبدا.
- يا وديع، إن سندس من عائلة كريمة ومعروفة. وهي راغبة بك وعاشقة. هي تتمناك زوجا لها. والشرع حلل الزواج من الثانية والثالثة والرابعة والقانون لا يمنعك. فتوكلْ على الله ولا تفوت الفرصة.
- يا أمي، هي جميلة وراقية، ولكن حبي لعائلتي يمنعني من زواجها.
- واضح أن سميرة محظوظة جدا. أنا أحسدها كثيرا.

أوقف وديع سيارته، وبقي جالسا فيها ينتظر رجوع الحاجة إليه بعد أن تشتري ما تريد من السوق. أخرج هاتفه، وأخذ ينظر إلى صور سميرة، ثم إلى رسائلها التي كانت ترسلها له قبل أن تعمل. وكلم نفسه : يا حبيبتي سميرة، الشوق لك يقتلني، وحبي لك يتفجر، ولكني أنتظر منك حتى ولو

رسالة بسيطة تفرحيني بحبك لي، وتطيب كل آلامي. فها أنا ماسك بيدي هاتفي أنتظر رسالتك، فأرسلي لي رسالة، يا حبيبتي.

يا حبيبتي سميرة، أنا مشتاق لك ولابتسامتك التي تسعدني. مشتاق أن هديك هدية، وأجلب لك الطعام الذي تحبينه، ونخرج معا للتنزه كما كنا نخرج في أيام العطل، مشتاق أن أشتري لك ملابسك وزينتك، مشتاق أن أحكي إليك كل ما يحدث معي طوال يومي كما كنت.

يا حبيبتي، كفاك، إثارة لغيرتي عليك، فأنت تعرفين حبي لك، والله لن أبدلك بكل نساء الدنيا. أ يعقل أنك لا تشعرين بشوقي لك وحاجتي؟

لا أعرف كيف تستطيعين الصبر على البعد عني! يا حبيبتي، لا أستطيع الذهاب لك، ولا أستطيع الانتظار أكثر. فبادري لي بأبسط الأشياء.

وإذا بالحاجة تقف بجانبه بالقرب من نافذة السائق : وديع وديع، ماذا جرى لك؟ هل يعقل أنك لم تشعر بوقوفي بقربك!

- أهلا، يا حاجة.
- ماذا جرى لك، يا بني؟ أنا أقف بالقرب منك، وأنت لم تشعر بي! أنا متأكدة من أنك لم تنزل من سيارتك منذ تركتك.
- لا أعرف، ولكنك رجعتِ بسرعة. هل انتهيت من شراء ما تريدين؟
- نعم، انتهيت. ولكنك كنت تفكر بالمحظوظة سميرة وبحبك وشوقك لها؛ لذلك لم تشعر بالوقت، ولم تشعر بوقوفي بقربك. ولا تقل لي إن كلامي ليس صحيحا.
- بل كلامك صحيح. لقد أخذني الشوق لسميرة، وسرقتني الذكريات، فعشتُ معها.
- يا بني، أنت رجل، فدع هذا الضعف للنساء. كن قويا. أنا جائعة وعطشى.
- إذن إلى أقرب مطعم.

الفصل الثالث

كأن سميرة عروس في زينتها وفرحتها، لا يكاد فمها العريض يستوعب ابتسامتها وهي مع خريبط داخلين إلى المستشفى منتشينِ مندمجينِ منطلقينِ كأنهما سكرانينِ لدرجةِ أنهما لم يريا وديعا حين مرا بالقرب منه وهو يمشي في الساعة الثانية عشرة ظهرا. أوقف خريبط سيارته في موقف السيارات، ونزل منها، ووقف مع بعض الرجال في ساحة المستشفى تاركا سميرة وحدها تتفجر ابتسامات فرح منتشيه سعيدة منطلقة حتى أنها مازحت طفلا مر بالقرب منها ولاطفته بعد أن فتحت باب السيارة التي لا تُفتح نوافذها. منتظرة له في داخل سيارته ما يقارب عشر دقائق، ثم عاد إلى السيارة بعد أن كلم ثلاثة رجال كانوا واقفين في ساحة المستشفى، وركب فيها وخرجا من المستشفى بعد أن زالت ابتسامتهما برؤية وديع.

توجه وديع لنفسه يسألها : يجب أن أفهم أين كانا؟ ولماذا جاءا؟ ولماذا هما يشعران بكل هذا الفرح؟ وما سبب هذه الابتسامة الخجولة، والابتسامات الكثيرة؟ ولماذا كانا كالسكرانين لم يرياني؟ ولماذا نزل من سيارته وهي بقيت فيها؟ وما الغاية من وراء كل ذلك؟ وإلى أين ذهبا؟ بلا شك أنها أفهمت زميلاتها أنها مجازة، وأفهمت أهلها أنها في عملها.

أدرك وديع أن كلامهما كان يدور حول موضوع حساس جدا وعاطفي ومهم لهما ومفرح من خلال ابتسامتها الأنثوية؛ وأدرك أن الحاج وزوجته وبشرى واثقين من خيانة سميرة له؛ وأن تبريراتهما لأجل تهدئته وتقويته على ترك سميرة؛ وانتهى إلى خيانة سميرة، وكرهه لها وعدم مقدرته على رؤيتها؛ وأدرك الفرق بين سميرة التي عرفها قبل الزواج واثنائه وبين سميرة بعد تعيينها وحصولها على منصب ومال، حين تمكنت ظهر جوهرها وبانت حقيقتها.

منذ صرخته عليها، قطع خريبط السلام على وديع وكأنه لا يعرفه بعد أن كنا يعرفا بعضهما. كان وديع يخرج صباحا بالقرب من أهل سميرة؛ ليراقبهما، وفي بعض الأحيان يراه خريبط في مكان ما، فيسرع لتغيير مكانه؛ لأنه يعرف أن خريبط سيذهب ليأتي بسميرة ثم يرجع في الطريق نفسه؛ وإذا بهما يدققان النظر في ذلك المكان الذي رآه فيه خريبط، ويتكلمان مشيرينِ إلى المكان باحثينِ عنه ولكنهما لا يجداه، وهو يراهما من مكان آخر.

صوت سيارة خريبط المستهلكة القديمة التي يرجع تاريخ صنعها إلى سنة (1980) واضح ومميز بالنسبة لوديع، فهو صوت عال ومزعج كأنه صوت جرار؛ وشكلها الخارجي مشوه وسخ كداخلها. أما خريبط فطويل، شديد الأدمة، متجعد الشعر، محدب الظهر، بطين أثرد[3]، عريض الجبهة، كبير الأنف، خشن اليدين، تجاعيد عمره الواحد وأربعين سنة تكثر على وجهه، وفقره وصغر نفسه جعلاه رث الملابس، خدوم مطيع، قبيح الصوت، عابس غليظ. لم يقبل عليه أحد إلا سميرة.

[3] - بشفتيه تشقق

ابتسامتها لخريبط محت كل الذكريات الراسخة التي تعيش مع وديع، وحولت حبه لها وشوقه إلى كره لها نفور. رمى خاتم زواجه منها في أقذر نفايات، وأحرق كل صورها وذكرياته، ومسح كل الرسائل التي كانت بينهما، وأستعار من نفسه حين كان يبكي عليها شوقا، ومن الحاج ورابعة وبشرى وكل معارفه حين كان يحدثهم عن حبه لها بكل فخر. حركه شيطان انتقامه لارتكاب جريمة، ولكن رجاحة عقله وإيمانه بأن كل شيء قد تدمر وانتهى منعاه من الجريمة، فانصرف إلى الحاج وزوجته وبشرى.

نصحه الحاج قائلا : اسمعني، يا بني، الموضوع بسيط، وأبسط مما تتصور، وهو أنها زوجة خائنة؛ للك وجب طلاقها، ولكنها نثرت بطنها بطفلين، وهذه هي المشكلة فعلينا إيجاد الحل المناسب، وسنجده بلا شك. فإياك والحزن والاكتئاب، والتأسف على شيء، والتمسك بمن لا يريدك ولا يحترمك، وإياك ومسامحة من يتعالى عليك ويتكبر، واعطاء أهمية لمن يرى نفسه مهما لك.
وعلقت الحاجة : تذكر أنك إنسان مميز، وهناك الكثير من النساء يحلمن بك، فإياك أن تحقر نفسك أو تقلل من شأنك، وإياك أن تتنازل لها فتتنازل عنك.
وديع : والله، إن الألم يمزقني، والحزن يقتلني حرصا على ياسمين وسيف اللذين دمرتهما أمهما ودمرت سمعتهما وعدمت مستقبلهما؛ أما هي فلا تهمني، ولا أريدها، بل إنني أستعار منها وأخجل.
الحاج : لقد فعلت ما عليك وزيادة، ولن تستطيع حمايتهما من أمهما، فهي بلا كرامة ولا شعور بالمسؤولية. ولا تحمّل نفسك أكثر مما ينبغي، ولا تظن أن حياتك متوقفة عليها، ولا تمنحها سلاحا وتدير لها ظهرك، فعدو واحد داخل البيت أخطر من ألف عدو خارج البيت.

الحاجة : أنت تعطيها قيمة كبيرة وهي تستغلها ضدك. يا بني، إن كنت تحب زوجتك، فقد تكون هي لا تحبك، ومن العار أن تفكر بامرأة تفكر بغيرك، ومن الجبن أن تستسلم لمرأة مستسلمة لرجل غيرك؛ لا تظلم نفسك بيدك.

بشرى : هناك الكثير من الناس يستهينون بمن يرونه محبا لهم، وهناك من يعظمون من يتجاهلهم ويهينهم كسميرة وخريبط. والعاقل هو من لا يفرض نفسه على الناس، بل يجعل الناس تتودد إليه وترغب به. وأعلم أن الحب تفاهم وتضحية وود وبذل نفس وكيان للطرف الآخر، وليس تكبرا وتعاليا.

الحاجة : الخيانة ليست ممارسة الجنس فقط مع غير الزوج، بل إن من أنواع الخيانة إهمال الزوجة لزوجها، وهتك كرامته، وإفشاء سره، ومساعدة الناس عليه، والتكبر عليه والتذلل لغيره.

الحاج : ثق يا بني، إن قرب جلوسها منه، وطول بقائها معه، ودوام ابتسامتها له، وشدة تمسكها به، وكثرة مسايرته لها، وتمكينها له بأن يكلمها، وكثرة التودد له، وتمكينه من سمعها، كل هذه الأشياء تحتم ارتباطهما، وتعلن علاقتهما الحتمية التحقيق.

الحاجة رابعة : والاحتمال الثاني هو أنها ذليلة أمام كل الموظفين، وتافهة ولا أحد يحترمها ولا يقيم لها وزنا.

الحاج : في كلا الاحتمالين، فإنها مخطئة خطأ كبيرا مؤثرا على سمعتها وسمعتك وسمعة طفليكما وسمعة أهلها؛ لذا يجب عليك التضحية بنفسك من أجل انقاذ طفليك، وإلا فسينعدم مستقبلهما.

وديع : كيف أضحي؟

- تكمن تضحيتك في عدم طلاقك لها الآن. يجب عليك ارجاعها سريعا، واحتواؤها، وخلق جو مفعم بالحب والود والانسجام؛ كي يشعر طفلاك بالحب والأمان. وإلا فستكون أنت أيضا عار على طفليك كأمهما إن فضحتها أو طلقتها.
- كيف! أي بلاء هذا!

- يا وديع، إن الأم هي الوعاء الذي يُجمل ما بداخله من أطفال، فهو الذي يزيل قبحهم إن كان فيهم قبح، وهو الذي يزيدهم لمعانا إن كان فيهم حسن. وسميرة أخطأت ولا صلاح لها ولا مستقبل لطفليك إلا برجوعها إليك ثم طلاقها.
- ماذا تقول حفظك الله؟ كيف لي أن أرجعها بعد أن رأيتُ منها ما رأيتُ؟
- نعم، يجب أن تنفذ ما قلته لك. أما معاقبتها فلا بد منها، وخير عقوبة لها هو طلاقها مستقبلا بعد أن تخلص طفليك من هجمتها العنيفة الشرسة، وتنقذهما منها ومن عشيقها بعد أن يشتد عودهما. يا وديع، حدثني عن طفليك.
- لم أحتفل بعيد ميلادهما هذه السنة؛ فسيف قد صار عمره ثمان سنوات، وياسمين عشر سنوات. كلي شوق لهما، وكلي قلق عليهما. سعادتي مقتولة، وراحتي معدومة، والرضا على نفسي مغيب، وتأنيب ضميري عنيف.

الحاج : وأنا أعرف لأجل طفليك. فقد وضِع طوق ثقيل في عنقك؛ لذلك ليس لك إلا الصبر وتسليم أمرك لله، والتمسك بسميرة حرصا منك على طفليك المسكينين. وخصوصا ياسمين. فلن أسمح لك بأن تطلق سميرة قبل أن تنقذ ابنتك من أمها وعشيقها.

وديع : يا ربي، أي بلاء نزل عليّ! أنا لا أطيق رؤيتها، كيف لي أن أتصور نفسي معها؟ ماذا سيقول عني خريبط والناس؟

الحاج : هل تعلم أنني سألت عن أبي سميرة؟

- سألت عنه!
- نعم، سألت عن نصيف الملقب نصيف وقاحة. وهو شخصية تافه خسيسة وقحة، يعشق المال ويلهث وراء النساء حتى وهو بجال (شيخ مسن)، ولا يهتم لعرضه، ويعتمد على المظاهر في تزيين أفعاله

القبيحة، يجيد اللف والدوان، ويعترف الحيل والغش، ويكثر الكذب والافتراء.
أما أخوا سميرة، فوصفهما كوصف أبيهما ويزيدان عليه أنهما سارقان محتالان وضيعان سوقيان، الأصغر قد زنى بزوجة أخيه الأكبر. كلهم قذارة وعار. فهل تريد من هؤلاء أن يربوا لك ياسمين وسيف؟

- كل ما قلته عنهم صحيح؛ ولذلك الناس تتجنبهم. ووالدي أول الناس بعد أن عرفهم.
- ولماذا لم يتجنبهم ويجنبك إياهم قبل أن تتزوج ابنتهم؟
- هو سأل عنهم، ولكن من سألهم لم يخبروه بصدق. وبعد أن عرفهم صارت سميرة حاملا. فقاطعهم وسكت عني ولم يذكر سميرة وأهلها أمامي خوفا من حصول مشكلة بيني وبينها حتى لا أطلقها ويضيع الطفل.
- يا وديع، أنا استغربتُ كثيرا من زواجك من سميرة، فسمعة أهلها مخجلة جدا، وسمعة أهلك طيبة جدا، فكيف حصل التزاوج بين عائلتين مختلفتين تماما؟
- كان خطأ كبيرا مني.
- وذنبا كبيرا منها، سيعذبها الله عليه، ويثيبك عليها، وستطلقها بعد أن تزوج ياسمين.

****

للمرة الخامسة، لم ينجح الحاج والحاجة وبشرى في اقناع وديع بإرجاع زوجته سميرة إلى بيته؛ وكذلك لم ينجحوا في موضوع زواجه من زوجة ثانية خفية عن زوجته حتى بعد أن أخبروه أن سندس ترغب به، وأسماء تلح عليه؛ وحتى بعد أن عرضوا عليه الزواج في بيت الشيخ؛

وحتى بعد أن أعجب بجمال كلتا البنتين وأنوثتهما؛ وحتى بعد أن تبرعت بشرى بتكاليف زواجه. لا زال حريصا على طلفيه من التشرد والضياع حتى بعد أن تأكد من خيانة زوجته له مبينا لهم صراعه مع نفسه لكبح رغبته الجنسية كي لا يقع في الحرام.

****

عمل وديع بنصيحة بشرى له، أخذ إجازة من دائرته من دون راتب لسنة، وباشر عمله في إحدى الشركات النفطية في ميسان بعقد لمدة سنة كاملة بدء من تاريخ 2009/10/6 . وبتخطيط الحاج علي وبشرى باع وديع سيارته، واشترى أرضا سكنية في ناحية المشرح من ميسان. وصار وديع يستخدم سيارة ابن بشرى (عمر) الحديثة التي كانت متروكة في بيت بشرى.

بعد تعب وجهد من قبل الحاج ورابعة وبشرى، وافق على إرجاع زوجته سميرة إلى بيته، بعد فراق بينها دام أكثر من سنة. وكان الوسيط في مبادرة الصلح هو بشرى. أوصل وديع بشرى إلى مكان عمل سميرة (المستشفى) وبقي ينتظرها في موفق السيارات. وبعد أكثر من ساعتين، رجعت بشرى إلى وديع، وقبل أن تصل إليه، كلمته بصوت عال : أنت بلا ذوق. ولا تعرف الجمال ولا الاختيار. مجنون أنت.

وديع : اقتربي مني أولا ثم تكلمي. يا مجنونة.

- بربك كيف أخترتها؟ والله إني أراها خادمة في شكلها، وقذرة في نفسها، وشيطانة في تفكيرها، وبذيئة في لسانها، ووو
- أنا أسف، يا بشرى، لقد أتعبتك. ولكن ما النتيجة؟

- أي نتيجة، يا عديم الذوق؟ وفوق كل ذلك تغار عليها وتتمسك بها! مجنون أنت. والله كأني أراها خادمة لسندس أو لصديقتك كرستل. يا مجنون، وجهها صغير كعينيها، وأنفها وفمها كبيران كخديها، ورمشاها وحاجباها كشواربها، وفمها أعوج كحاجبيها، وأسنانها صفراء مائلة إلى سواد بشرتها، وشعرها فيه بياض خارج من حجابها، وتجاعيدها كثيرة وقبيحة كأفعالها، ولون وجهها يختلف عن يديها، وملابسها غير منسقة؛ ومكياجها مكياج غجرية. وو
- أخبريني يا بشرى.
- ماذا أخبرك، يا مجنون؟ أنا مصدومة بشكلها وسلوكها وكلامها. أما شكلها فقبيح جدا، وأما سلوكها فأنا أستعار منه، وكلامها سوقي. تصور أنني وجدتها جالسة تمزح مع خمسة رجال وكأنها رجل مثلهم، فبقيت أنتظرها تنهي مزاحها. ثم تناولت الشاي مع اثنين، ثم تكلمت مع بعض المراجعين، وبعدها تقدمتُ إليها، فأخبرتها أن لي كلام معك. وبعد أن قلت لها أنكَ أرسلتني إليها، صارت تذمك وترفضك.
- ترفضني! أ لم أقل لك إنها وقحة وغير محترمة، وأنا لا أريدها.
- يا وديع، كيف اخترتها، يا أحمق؟ تصور أنها تسألني وتجيب نفسها عما تسألني عنه، وتصور أنها تقول من أين تعرفينه وما علاقتك به؟ فليس صحيحا أن تقوم علاقة بين رجل وامرأة! وديع، كيف ذلك وهي التي تمازح خمسة رجال أمام عيني، وحركاتها غجرية كمكياجها وملابسها، وانسجامها معهم كانسجامك مع كرستل! دمي يغلي، يا وديع. فعلا والله هي تليق بخريبط ولا تليق بك.

- فعلا والله هي وأهلها كلهم يرهقون أنفسهم بالبحث عن إيجاد عيوب الناس أو يفتعلون عيوبا ويصدقونها ويهاجمون بها الناس، على حين أنهم لا يلتفتون لأقبح عيوبهم، هم مصداق للمثل القائل : رمتني بدائها ونسلت. لقد عانيتُ كثيرا من ذلك.
- أنا فهمتُ أن عندها حاجة الجسد قوية؛ لذلك تكثر الابتسامات بوجوه الرجال؛ كي تجعلهم يقتربون منها ويتوددن لها، فترتبط بمن ترغب. وحتى تتستر على مغامراتها مع عشيقها بمخالطتها الجميع، وبنفس الوقت تعد نفسها مثقفة ومنفتحة. ماذا يا وديع، هل أزعجتك بكلامي؟
- كلامك صحيح. ولكني أشعر بعار؛ لأنها ترفضني. ليس أنا من يُرفض وليست هي من ترفضني، وهي نعل خريبط.
- أفرحتني، يا أخي، يا أيها الرجل القوي. نعم، أنت من ترفضها وليست هي ولا أي امرأة. حب نفسك واعطها قيمتها، ارمِ كل من يهدد كرامتك. الآن أنا أفتخر بك. وتذكر جيدا أن من النساء من شعرت بنقص فيها وفي أنوثتها عوضته بالمال حتى ولو على حساب بيتها وزوجها. وكذلك من كانت قبيحة مهملة وصارت حبيبة لرجل يتودد إليها، فإنها تحاول التعالي عليه بعد أن تأكدت من حبه محاولة مداواة جراح قبحها وتعويض نقصها.

****

بعد أكثر من أربعة أشهر، اتصلت إحدى صديقات سميرة (سُعدى) بوديع طالبة منه المبادرة إلى صلح سميرة من خلال مراسلتها والاتصال بها هاتفيا، وإهداء بعض الهدايا، والذهاب مع أناس وجهاء إلى بيت أهلها.

بعد أن انتهت المكالمة مع صديقة سميرة، لم يستطع وديع النوم حتى ساعة متأخرة. اتصل ببشرى. وأخبرها، وشكى لها عدم استطاعته تصور نفسه معها وهي خائنة له. فحاولت اقناعه وتهدئته بأنه مضحٍ لأجل طفليه مكررة تسميتها لسميرة بالوقشة[4] الشريرة.

لا أحد معه، فكلم نفسه متألما متحيرا : صرخ عليها، فتركتني وأطاعته، وصارت له كنعله. فكيف أستطيع أن أنظر إليها! ماذا سأقول عن نفسي وهي معي وخريبط يراني؟ ماذا ستقول هي وخريبط والناس عني؟ سيضحكان عليّ ويسخران مني كل فترة عملهما، وبعدها تأتي إلى بيتي للاستراحة والنوم. بلا شك أنها تراه بطلا؛ كونه صرخ عليها أمامي. وبلا شك أنها بعد الصرخة، ذهبت إليه ودلعته وقبلت يديه حبا، وحين أبلغته بأنها اتصلت بي وطردتني من حياتها. غريب أمر سميرة، الناس تقي أعراضها وبيوتها ببذل مالها، وهي تهدم عرضها وبيتها ببذل مالها. والأغرب أنني أفاوضها بود محاولا إقناعها بالرجوع إلي! يا رب، ساعدني على تقبل الوضع، وامنحني الصبر.

[4] - مؤنث القرد

الفصل الرابع

يقول خريبط : إنك عندما رأيته انفعلتَ وارتبكتَ، ولم تعرف ما تفعله فقد دخلت إلى البيت مسرعا ثم خرجت ثم دخلت، وهو ينظر إليك من تحت الباب. لماذا تصرفت بهذا الشكل مع خريبط؟
هذا ما توجهت به سميرة إلى وديع ووجها مكفهر بعد أن عادت من عملها في يوم الأحد الذي هو اليوم الأول لمباشرتها بعد عطلتها التي قضت منها أسبوعها الأخير في بيت وديع.
أجابها وديع مستغربا : والله، لا شيء من هذا صحيح، كله كذب، والدليل أنني أنا من طلب منك أن تبقي معه، والدليل الآخر على كذبته أن من كان خارج البيت لا يستطيع رؤية داخل بيتنا من أسفل الباب. والدليل الثالث لماذا لم يتصل بك تليفونيا فأنتما اعتدتما على الاتصال تلفونيا؟
فسكتت سميرة وتغير لونها كأنها متأكدة من كذب خريبط وهروبه وتركه إياها ورميه لها، فحاولت كسر صمتها وتدارك الموقف بقولها : أنا دافعتُ عنك أمامه، وقلتُ له : إن وديعا هو من طلب مني أن تكون أنت معي.

- ماذا! تدافعين عني! وأمام من؟ حسبي الله. لقد أتصلوا بي وأخبروني علي الحضور إلى الشركة. وقت عملي في الشركة من السابعة صباحا إلى الثالثة مساء.
- وأنا سأترك ياسمين وسيف عند أمي حين أذهب إلى عملي. واليوم أحتاج أن أذهب إلى السوق.

- وأنا سأخرج الآن؛ لأنظف السيارة، ثم اشتري بيتزا لياسمين، وحلوى لسيف. وسأعود قبل المغرب.
- إذن عندما أنتهي من السوق أتصل بك؛ كي أتي معك إلى بيتنا بسيارتك الحديثة. أحب السيارات الحديثة.

****

لم تشعر بوديع كان يكلمها وهو كاظم غيظه، ودقات قلبه تتزايد وتتسارع، ودمه يغلي، ولم تفهم أنه كان يخطط لوضعها وخريبط تحت أنظاره متصيدا لهما، ولم تدرك أن خريبط عرف الخطر فتجنبه، أما هي فلا تعي الخطر. ولا زال وديع يفكر بجوابها له : نعم، أنا أيضا أريد أن أبقى مع خريبط، خيرا فعلتَ أنك قبلت به، هذا أفضل من أن أتصل به خفية عنك؛ لأنني أريد البقاء معه.

منذ أن دخلت بيت زوجها وكأنها قائد عظيم فتح بلدا عصيا، متفضلة المجيء، تمشي متبخترة كلها خيلاء، كارهة الناس، ورافعة رأسها، وعابسة وجهها، وخافية ابتسامتها الرخيصة المبتذلة للجميع، وغاضبة العينين، وحادة النظر، وقليلة الكلام، وغليظة الأسلوب، غير مدركة ولا ملتفة إلى كره زوجها لها، وابتعاده عنها، وأنه يستعار منها ويخجل؛ لذلك أتى بها وبابنته ياسمين وابنه سيف إلى بيته القريب من أهله في ظهر يوم ملتهب كي لا تراه الناس مع زوجته.

مل وديع كلامها عن المعجبين بها الذين كلموها، متباهية بأن أحد الموظفين قد فاتحها بأنه يريد الزواج منها، وهو يضمن لها بقاء سيف وياسمين في حضانتها؛ والآخر كتب فيها شعرا. ووديع يفهم أن الرجال يرونها رخيصة، فيريدون التقرب منها كي يوقعوها بعلاقة غرامية، فهم يعرفونها؛ وهذا إما لغيرتهم من خريبط ولطمعهم بها، أو لكرههم له.

لا زال غباؤها يسيطر عليها وكبرياؤها يمنعها من رؤية الواقع الذي تعيشه مع وديع حتى بعد أن انقضى أسبوعهما الأول وهما معا كالأخوين

لا جنس بينهما وكالأعداء لا حب بينهما على الرغم من أنها اعتادت سابقا على قوة وديع الجنسية معها التي كانت تمل منها وتعجز وأحيانا تهرب منه إلى أهلها؛ وكذلك لم تفهم أنه لا يستطع العيش معها، ولا يطيق رؤيتها. فنهاره يجبره على الهموم، وليله يجبره على الكوابيس، بعد أن كان نهاره فرحا بها، وليله شوقا لها. كل منهما يصرخ بداخله ويتحرك بغاية معينة، فغاية وديع التضحية من أجل طفليه وطلاقها، وغايتها إذلاله وفرض سيطرتها عليه.

هو يحاول مجبرا نفسه التعايش معها، وهي تحاول التظاهر بالقوة والصمود أمام تجاهله لها وإخفاء شوقها إلى ثورته الجنسية وغزله الرومانسي وروحه المرحة؛ وتحاول كبح غيرتها من تودده لطفليه وملاطفته لهما وإغراقه لهما بالحب والعطف والحنان. غير مهتم لنفورهما منه وكرههما له بعد أن كانا يحبانه كثيرا، ولكن ألمه وحسرته لا يتركانه فسرعان ما يتذكر أنهما كانا يحبان خريبط، ويصيحان باسمه فرحين حين كانا مع أمهما في عملها (ماما جاء عمو خريبط)، كأنه يحمل ذلك على عاتق أمهما مستدلا على ذلك بتسجيل اسمي طفليه باسم نصيف (والد سميرة) بدلا من اسمه في بعض الاوراق غير الرسمية. ويتحسر على عدم حصوله على فرصة لضرب خريبط، ويتذكر أن ابنه سيف حين كان مع أمه، شكى له من أن خريبط يترك أمه وهي تكثر نداءه طالبة منه أن يقلها، وهو انصرف عنها ولا يلتفت لها.

غرق في التفكير فيما فعلت صباح يوم الأحد حين كانت تستعد للذهاب إلى دوامها. متذكرا كسلها قبل معرفتها لخريبط. فقد استيقظت قبل أن يرن منبه هاتفها، واستحمت وتناولت فطورا بسيطا، ولبست الملابس الجميلة البراقة التي جهزتها في الليل، وبالغت بالتعطر، ووقفت طويلا أمام المرآة. وما إن قاربت الساعة من الثامنة وخمس عشرة دقيقة، وهي لا زالت تنتظره؛ كي يوصلها إلى عملها، كلمته : يا وديع، لقد تأخر السائق كثيرا؛ لذلك علي الذهاب الآن. وفي الساعة الثامنة وأربعين دقيقة، جاء خريبط إلى البيت؛ ليوصل سميرة، وبالمصادفة خرج وديع من بيته فرأه

أمام الباب فأشار إليه بيده بأنها ذهبت، فذهب. ثم عادت من عملها وناقشته وبينت له الفرية، ثم استغربت من كلامه وفهمت فسكتت.

****

ذات يوم، عاد وديع من عمله مبكرا، فتوجه إلى مكان عمل سميرة، وأتى بها إلى بيته تاركا ياسمين وسيف عند بيت جدهما (أهل سميرة).
توجه إليها بسؤال : ماذا بينك وبين خريبط ؟
فأجابته بكل ثقة : لا يوجد شيء بيننا فهو ليس إلا سائقا، وليس من مستواي، وأنا لا يمكن أن أنظر إليه.

- لماذا صرخ عليك؟
- هو أراد مني أن أنجز معاملة لصديقه، فهو يتوسط عندي لحل مشكلة في معاملة كغيره ممن لهم معاملات وطلبات. وهو سائق عندي حتى أني أتصل به دائما؛ كي يوصلني أينما أريد. وهو بريء وطاهر.
- وكم تعطينه أجرة ؟
- أعطيه ألفي دينار حين يأتي إلي؛ ليوصلني إلى بيت أهلي.
- كيف ذلك وهو يأتي إليك وأجرته ألفان ثم يرجعك إلى البيت بألفين؟
- لقد نسيت، أنا أعطيه ثلاثة آلاف.
- نسيتِ! ولماذا تعطينه ثلاثة آلاف وسيارات الأجرة مبذولة بألفين؟ ثم أنك تخسرين اتصالا به، وتضطرين لانتظاره، وقد يعاكسك أحد وأنت تنتظرينه في الشارع كما لمتني ذات يوم حين تأخرتُ عليك قليلا.
- من عاكسني؟ ومتى؟ من أين تأتي بهذه القصص؟
- ذات يوم تأخرتُ عليك قليلا، فخرجتِ وانتظرتني في باب المستشفى، حين وصلتُ لك، لمتني بغضب وقلتِ إنه هناك صبي نظر إلي وأراد

معاكستي. وكنت تقولين إنك خجلت كثيرا، وتعصبت كثيرا لحرصك على سمعتك وسمعة أهلك وعائلتك وزوجك. فهل تستطيعين أن تقارني فعل ذلك الصبي وقولك بمغامراتك مع خريبط؟

- لا أتذكر.
- هذا أسلوبك إما تنكرين أو تكذبين كما كذبت الآن بقيمة الأجرة. قارني أيضا ما قلته لي ذلك اليوم الذي أوصلتك إلى باب المستشفى الخارجي، فانزعجت قائلة ماذا سيقول عني الشرطي حين رآك تتركني في الباب وتذهب؟
- ولكنك فعلا تركتني بالقرب من الباب الرئيس للمستشفى وذهبتَ. والشرطي في الباب نظر إلي، وبلا شك أنه ظن بي سوء، وأساء إلى سمعتي.
- سمعتك! أي سمعة لك وأنت مع خريبط! اسمعي : أولا هو صرخ عليك، وأنت ركضتِ له مجيبة؛ وثانيا أنت قلت لي سابقا إنه يسأل عن أوراق؛ وثالثا أن من يريد أن يتوسط عندك؛ كي تسهلي له معاملته بلا شك يأتي إليك متوسلا، وليس غاضبا آمرا. ثم إنك دائما تذكريني بأنك صاحبة فضل عليّ حين تجلبين لي شيئا بسيطا مما أوصيك به، ولكن على ما يبدو أنك تساعدين الجميع، ولكنك تذكرينني أنا فقط وتطلبين مني مقابلا؛ لأني أحترمك، أما خريبط فهو سيدك.
- وما عساني أن أفعل له؟ فهو رجل وأنا امرأة فهل تريدني أن أتشاجر معه؟ ثم أنه ترك صديقتي هناء في الشارع ذات يوم؛ لأنها تأخرت عليه وهي تشتري. تركها وهي هناء الشرسة التي لا تخاف!

- ولكنك كثيرة المشاجرة معي، وبكل قسوة وعنف وسلاحك السكاكين وقطع زجاج النوافذ التي تكسرينها، فلماذا لم تكوني معه كذلك؟ وهناء قاطعت خريبط حين تركها، ولم تقبل بإهانته مثلما قبلت أنت. أين كنتما في ذلك اليوم؟ ولماذا خرجتما مبكرين؟ وإلى أين ذهبتما؟ ولماذا كنتما فرحين كأنكما سكرانين؟ ولماذا بقيتِ في سيارته بعد أن نزل منها؟

فأنكرت، وبعد أن رأت إصرار وديع قالت : أنا لا أتذكر.

- أنتِ إما أن تنكري أو تدعي النسيان أو تجيبي عن السؤال بجوابين اثنين متضادين. وأسلوبك هذا دليل على خيانتك؛ ولذلك سأعيش معك كما أعيش مع زميلاتي، وصديقاتي.
- كفاك شكا. أنا جاهزة لأقسم لك بأنه لا يوجد بيني وبين خريبط شيء.
- بل، أنا جاهز لأقسم بأن هناك شيء بينكما. ما دمت تعرفين أنني كثير الشك بك، فلماذا تبالغين في مخالطة الرجال؟
- مستحيل أن أنزل لهذا المستوى الدنيء لمستوى الخدمات مع خريبط، أ تظن أنني أرتبط بخريبط أم أن خريبط قد أوصلني لشخص بيني وبينه علاقة؟
- أنتِ من يثبت لي أن هناك شيء بينكما، وذلك لأنك لا تجيبيني على أسئلتي الموجهة إليك، وكثرة لفك ودورانك ومبالغتك في التحايل علي والانكار قاصدة بغبائك تغطية قباحة أفعالك المشينة، كأنك تغطين جسمك بأصبع واحد من أصابع يدك، كأنك أعور العقل واللسان معا.
- أنا جاهزة لأقسم لك. لماذا تفتعل المشكلات معي! أنت كثير الشك الذي لا داعي له.

- إن ما تفعلينه يشبه من يريد أن ينكر وجود الشمس وهي في كبد السماء. وأغرب ما في الموضوع هو وقاحتك وجرأتك وإيمانك بأنك ستقنعينني بأقوالك الكاذبة.
- أنت تكرهني، وتفتري عليّ. أنت كاذب ومخادع.
- انتبهي، أنا لم أطلب منك أن تنتقلي إلى قسم آخر من أقسام دائرتك؛ لأني مؤمن بأن علاقتكما ليست بالعلاقة العادية العابرة التي يمكن أن تنتهي وتفترقا، وأنك لست زوجتي ولن تكون زوجتي أبدا، بل إني أشعر بأنك زوجة خريبط؛ ولا أهتم لكما أن التقيتما أم لم تلتقيا. فأنا واثق من أنه لا يمكن اصلاح ذلك الخطأ ولا تداركه، ويستحيل مسامحتك، وأعدك بأنني لن أعيش معك طويلا، ولن أنجب منك أطفالا. المهم الآن هو الحفاظ على طفليّ.
- أنت مريض ووقح، وكثير الشك، وكثير الكذب والنفاق. لقد رأيتُ رقم هاتفي في هاتفك مسجلا باسم خريبط!
- هل تستطيعين أن تخبريني ما فائدتي أنا من عملك؟ وما الذي حصلت عليه؟ ولماذا تأخذين مني حقوقك كاملة كزوجة، وتحمليني أعباء عملك وأضراره كموظفة، وتعطين غيري مالك وجمالك؟ هل انتبهتِ إلى أنني لم أرَ راتبك ولا أعرف مقداره، ولا أعرف ماذا تفعلين به؟
- واضح أنك تريد من راتبي الشهري.
- يلعنني إن كنت أفكر بمال غيري. معروف عني أنني لا أقبل مساعدة أحد. يا سميرة، هل أستطيع أنا أن أصرخ على زوجة خريبط؟
- لا أعرف.

- طبعا تعرفين ولكن تتحايلين. هل تعرفين أنني لو صرخت على زوجة خريبط فإنها ستهاجمني قبل أن يهاجمني زوجها؟ وهل تتوقعين جدلا أن خريبط يقبل بزواج ابنه من ابنتك؟
- لا أعرف.
- ثقي أن خريبط يستعار منك ومني ومن ابنتك؛ لأنك ذليلة له، ولأني سكت عليه. فبلا شك هو غير راضٍ عنك، وغير راضٍ عني. والله لقد دمرت مستقبل أطفالك.

هل تتذكرين سُعدى التي خطبها ضابط كبير في الدولة ورفضته على الرغم من أنها تحلم بأقل منه مكانة وغنى، ولكنها عرفت أن أمه كانت قد أخطأت يوما ما؟ فأي دمار أنزلته بطفليك؟ وأي مصير قد فرضته عليهما؟ عندما يكبران سيقول عنهما خريبط ما يقول، وسيسمونهما بالألقاب لا بأسمائهما، وستعيرهما الناس بأقبح عارٍ. إن ثقبا واحدا-وإن كان صغيرا-فهو يغرق سفينة وإن كانت كبيرة.

- أنا عندما أسلم على الموظفين، يرد بقوله : أهلا، يا ست. هو يحترمني.
- أي احترام هذا لك! وأي جواب هذا لكلامي! وأي حل سيكون من كلامك! وأي فكرة ستكون لي عنك؟ أنت تؤكدين لي كل ما أراه. وما أراه هو أنك على علاقة قذرة به.
- لماذا أنا أجلس معك، يا شكاك يا مزعج! فلأذهب.

بعد ذلك، تبدأ مغامرات خريبط وسميرة مع وديع، وأولها أن خريبط يمر مسرعا من أمام وديع أينما يراه وكأنه يريد أن يقول : له ها أنا ذا فأنظر إلي. وبقي وديع يراقب حال خريبط، وخريبط مستمر بفعله هذا. إلى أن أخبر وديع سميرة بحال خريبط، فأجابته أنها ستتصرف وتنظر في

تصرفات خريبط. وبعدها تغير وضع خريبط، وأصبح يهرب من أمام وديع أينما يراه كانه يقول له أنا لست موجودا. وبعد فترة، أخبر وديع سميرة بحال خريبط الجديدة. وبعدها بيوم، أصبح خريبط طبيعيا في تصرفاته حين يرى وديعا. وحين صار يدقق بأسئلته عليها، أجابته بأنها لا تعرف بامر خريبط. ثم أنكرت أنها قالت له : إنها ستتصرف وتنظر في تصرفات خريبط. فيكلم وديع نفسه : هي أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تموز؛ غبية هي جاهلة تظن أنني أصدقها.

أنصاع وديع لنصيحة الحاج والحاجة وبشرى التي تنص على التعايش معها بكل سلمية؛ كون خيانتها ثابتة، ووظيفته مضحٍ، وكي لا تشقى وتتعب ياسمين وسيف من المشكلات بين وديع وزوجته.

ذات يوم دخل بيته، وقد جزعت من تجاهله لها، فأرتفع صوتها بكل غضب وعدوانية كعادتها. أحتضنها متحملا ثقل وزنها، ووضع يده على فمها، وحملها إلى غرفة النوم، ووضعها على الفراش. ثم كلمها ولا يزال مكمما فمها ومغلقه : كفى، يا سميرة، أنا أخطأت بتجاهلك وكثرة غيابي عن البيت، وها أنا أعتذر لك. فلا تقولي شيئا. أنا أعترف لك بأنني مخطئ، وأعتذر. فكفى. لا، لن أتركك، كأنك تريدين أن تتكلمي. ثم أنك متأنقة الآن، إذن سأجامعك الآن.

اندفع نحو سميرة قاصداً مجامعتها، رفضت قائلة : طيب، يا وديع، أنا قبلت اعتذارك. ولكن ليس وقت للمجامعة الآن، فياسمين وسيف يلعبان. فتطاير الشرار من عينيه، والحزم من كلامه، وقال آمرا إياها : أديري إلي ظهرك، وأخرسي. ولف يديه على رقبتها، وحضنها من الخلف، وضمها إليه بقوة، وغطاها، وباشرها. فقالتْ له وهي خائفة مما فيه من شر، ومجبرة على المجامعة : هيا، يا خريبط انتهِ مني بسرعة. فصرخ وديع مستغربا : ماذا قلتِ؟

أجهشت بالبكاء، وقامت واستخرجت ملابسها وهي تردد : يجب أن أذهب إلى بيت أهلي، فنحن يجب أن نتطلق، أنا تعبتُ تعبتُ تعبتُ. انظر

إلى أين أوصلتنا أنت؟ لقد أوصلت اسم خريبط إلى فراشنا الخاص، نعم، أنت من جعلني أذكر اسمه؛ لأنك تذكر اسمه أمامي.
وديع : زلة اللسان تأتي على الإنسان فتلجم كذبه. هيهات فالباطل ينتهي ولا يدوم، والحق يدوم ولا ينتهي، انتهت اللعبة، يا زوجة خريبط. علما أن طريقة ممارستك الجنس معي قبل بقائك عند أهلك تختلف عن طريقتك بعد رجوعك إلي. لقد تطورتِ في ممارسة الجنس بعد أن عرفتِ خريبط. اذهبي إلى أهلك. لا حاجة لي في خائنة قذرة ذليلة.
خرج وديع من بيته متوجها إلى بيت الحاج وهو يرتعد، ويردد : حسبي الله ونعم الوكيل. ويكلم نفسه متألما : أكيد ستذهب إليه وتقول له : يا حبيبي، من شدة حبي لك، أخطأت بذكر اسمك حين كان وديع يضاجعني على فراش الزوجية. وستحاول كسب وده لها ورضاه عليها من خلال إخبارها له مع اعطائها له مبلغا من المال.

****

انفتحت عينا الحاج علي، وقال : في هذه الحادثة ورد إجبار كالاغتصاب، وممارسة بلا غزل، وخوف من الموجودين، ولهجة آمرة، وانصياع بلا رضا، كل ذلك كان يحصل لها مع خريبط. وما قالته (هيا، يا خريبط، انتهِ مني بسرعة) هو قول سلس على لسانها معتادة عليه ومردده له مرارا.
بشرى : يا وديع، لقد عيشتها ذلك الجو الذي كانت تعيشه مع خريبط، فهو كان يجبرها على ممارسة الجنس معها في بعض الأماكن التي لا ترتاح فيها ولا تشعر بالأمان بعصبية واجبار دون حب وتودد.
الحاج : وعلى ما يبدو أنهما كانا يمارسان بطريقة أنه يكون خلفها وهو يمارس، وهي تنظر وتراقب المكان؛ مخافة أن يأتي أحد فيراهما، ويبدو أن هذا كان يحصل دائما أو كثير ما حصل بينهما؛ لذلك كانت سميرة

دائما تردد العبارة التي تطلب فيها من خريبط الانتهاء من مجامعتها بسرعة، وهو آمر لها وهي ذليلة له.
رابعة : هذا مطابق تماما لسوك خريبط الذي لا يراعي مشاعرها في أن يحترم ما تحب ولا يمتنع عما يزعجها. ويتلاءم مع سلوك سميرة الخانع الذليل لخريبط. فيا ولدي، لا تنزعج ولا تحزن، يجب أن تؤمن بالله، وتصبر على البلاء.....
وديع : يا أمي الغالية، أنا تقبلت الموضوع، وبدأت حياة جديدة وما عادت سميرة تهمني أبد.
بشرى : التحليل منطقي؛ كونهما لا يملكان مكان خاص بهما. هما كانا يصلان إلى المستشفى مبكرا ويخرجان منها آخر الناس، بعد نصف ساعة أو أكثر من انتهاء وقت الدوام الرسمي؛ وكذلك أنهما يخرجان معا حيثما شاءا في أي وقت شاءا.
فتجيبه رابعة : يا ولدي، لو افترضنا أنها لم تخنك جنسيا، فتأكد أنها قد خانتك حين نطقت اسمه، وحين خضعت له، ومكنته من التقرب لها، وتأكد أنك حتى وإن سامحتها كثيرا وإن كان سماحك لها على حساب سمعتك وشرفك فإنها لن تميل لك أبدا، ولن تقدر ما فعلته لها لا حبا بك ولا اعترافا لجهودك.
بشرى : لئمها يمنعها، وفعل وديع النبيل معها يزيدها تمردا عليه. تقبل الحالة، وعش حياتك، امحِ حبك لها. فهي تحبه والمرأة إذا أحبت رجلا رضيت به حتى على قبيح شكله وشنيع فعله، وماتت لأجله، وإذا كرهت رجلا لن ترضى على جميل شكله وحسن فعله، وماتت منه.
الحاج علي : والآن، يا وديع، لقد ظهر الحق وبان المخفي، وانفضح المستور، وحل اليقين محل الشك، فعش حياتك، وارضَ بحالك، واهتم أكثر بطفليك، وتزوج من تحبك وتجلك وتحافظ عليك. واترك سميرة وعشيقها حتى يأتي وقت طلاقها.
وديع : حسبي الله ونعم الوكيل، إليه أفوض أمري.

الحاج علي : إنك لشجاع حين استطعت السيطرة على أعصابك حين نطقت اسم عشيقها. وهي في غاية الشيطنة والمكر حين بكت وطلبت الطلاق. فقد استخدمت أسلوب البكاء والصراخ والتهديد للدفاع عن نفسها واسكاتك.
بشرى : ولو لم تبكِ وتصرخ وتطلب منك الذهاب لأهلها وتهددك بالطلاق لحاورتها وناقشتها بهدوء وانتهيت معها بخيانتها التي تريد أن تهرب منها وتحسن صورتها.
الحاجة : بلا شك، هي بارعة في الخداع آكلة مع الذئب باكية مع الراعي، مفرطة في الخداع حتى كأنها تخدع نفسها، هي الضاربة الباكية الشاكية الظالمة.
وديع : أنا قلتُ لها يمكنك أن تذهبي لأهلك فلا حاجة لي فيك.
الحاج : لن تذهب أبدا؛ لأنها تخاف من الفضيحة، ولأنها تشعر بالذنب والنقص، ولأنها متأكدة من أنك ستطلقها لو ذهبت.

حدث وديع نفسه كأنه يلومها ويوبخها : ماذا يقول عني الناس؟ زوج الداعرة أو قليلة الشرف. هل سيقال كما قال أحد الموظفين على ابنة زميلته في أنه قال عنها : إنني ساعدت زوج زميلتي في جعلها حاملا؟ فجاءت هذه البنت كأنها بطة تشبهني، فلي فيها حصة.
هل تراني الناس كمنعدم الشرف والرجولة حين تكون معي؟ وأكيد هي وعشيقها يذكراني بسوء ويسخران مني. لقد أسأتُ لسمعتي وسمعة عائلتي. هل أن ما تطلبه مني أو أخذي لها لمكان ما، هو نفسه ما كانت تفعله مع خريبط؟
أ صان خريبط سميرة أم أنه سمح لغيره بمشاركته بها في حال تهديده أو في حال حاجته لشيء من أحد ممن يذلونه ويخيفونه كصديقه الذليل نعيم؟

كيف استطاعت سميرة حماية نفسها ممن يهددونها من الذين يعرفون بعلاقتها بخريبط وخصوصا أصحاب خريبط؟ أ تنازلت لهم واستغلوها أم أنها جابهتهم-وإن كان هذا مستحيلا في نظري-فأهانوها وضربوها؟
هل تباهى خريبط بإذلاله لسميرة وطاعتها له أمام الناس؟
لن أستطيع نسيان شكل ابتسامتها الأنثوية على الأقل؛ وكونها أمامي أنا-زوجها-تلبس رداء وهميا من قيمة مفتعلة وغرور فارغ وبطولة مزيفة، ودائما يشف هذا الزيف الغبي والرياء السخيف عما تحته؛ ليظهر جوهرها الحقيقي المتفجر خضوعا وخنوعا واذلالا واذعانا أمام خريبط. ولن أستطيع التغزل بها، ولا إهداء ما تحبه، وكل ما تفعله لي في حالة رضاها عني، بلا شك قد فعلته له. ولكن بداخلي صوت يصرخ؛ حرصا على أطفالي.
أما مغامرات خريبط معي، فهي من أدل الدلائل على خيانة سميرة. فهو يريني نفسه كي يفهمني أنه موجود، وليس خائفا مني. معنى ذلك أنها عرفت بفريته وكذبه فعيرته بأنه يهرب مني، فأراد هو أن يثبت لها العكس؛ وبعد أن أرضته فصار يغيب وجهه عني؛ وبعد أن شككت بأمره، نفذ ما أرادته منه في أن يكون طبيعيا معي. واضح أنها تستغفلني إن لم تكن هي في قمة الغباء.

سلوك وديع صار مربكا لكل من سميرة وخريبط؛ فسكوت وديع عنهما يوحي لهما بأنه جبان ديوث، ولكن مناقشته لسميرة يرعبهما، ونظراته الحاقد غير المسيطر عليها لخريبط تخيفهما؛ وتطمئنهما استجابة وديع للتفاعل معها بممارسة الجنس بقوة أكثر من ذي قبل، وتفجره حبا لطفيله تشبع عشرات الأطفال. كأن الجميع أندمج بحياة هادئة؛ فلخريبط وسميرة وقتهما، وهما في عملها، ولوديع وقته مع سميرة وطفليه في بيته وفي كل الأماكن التي يأخذهم لها للتنزه. ولكن لكل منهم في داخله صرخة خوف وقلق؛ خريبط وسميرة يخافان من وديع ومن أهلهما، وسميرة تخشى

طلاقها من وديع بعد أن عاشت السعادة معه، وطفلي وديع ياسمين وسيف يخافان ولا يعرفان مستقبلهما كأنهما واثقان من خلاف أمهما وأبيهما، ووديع يعتبرها زوجة خريبط، ويخاف من سخريتهما به وغدرهما.

الفصل الخامس

تفاجأت بشرى بوجود وديع في منتصف الليل مع المهندسة الفرنسية (كرستل) في غرفتها في سكن الشركة، وتفاجأت أكثر من وجوده في الشركة في عطلته. اتصلت به وفهمت أنه يهرب من سميرة وعارها، ويلوذ بأحضان كرستل. كأنها لا تكاد تصدق أن وديعا يقيم علاقة مع امرأة. لامته كثيرا، فردها بقوله : دعيني في سكري مع كرستل، فأنا وديع الذي طُرِق بابه ظلما وهو لم يطرق باب أحد. كفى أرجوك، دعيني أكون في أحضان جمالها وأنوثتها.

في صباح اليوم التالي، ذهبت بشرى إلى وديع في غرفة كرستل، مباركة له فرحة مبتسمة مجاملة له ومعتذرة عن لومها له ليلة البارحة. فهمت بشرى أن وديعا يعيش صراعا نفسيا قاتلا. ظروفه وسميرة يجبرانه على تغيير مبادئه، وضميره ودينه يجبرانه على بقائه على مبادئه.

كلمت بشرى نفسها : سيعيش مع كرستل ليالي وردية، ستستطيع هذه الفتاة الأجنبية الشقراء الجميلة الجذابة إراحة نفسه المتعبة القلقة، وستعكس صورة جميلة لجمال المرأة في مخيلته، وتبين له معنى الحب، وتجسده في سلوكها معه. أنا سعيدة لأجله. ولكنها تذكرت أن كرستل ستعود إلى بلدها الأسبوع القادم؛ لأن عقدها مع الشركة قد انتهى.

فاجأ وديع بشرى بارتباطه بمونيكا بعد سفر كرستل، وهي الحسناء الكندية التي يشع منها جمال الوجه ونقاء القلب، هي التي نقلته من عالم الدنيا إلى جنة الجنان حيث الجمال الملائكي، والصراحة الصادقة، والنفس الطاهرة، والبراءة النقية، والروح الوفية. هي مونيكا التي سقت صحراء وديع القاحلة، فحولتها إلى جنة، ونمتْ كل أزهاره الذابلة، وطردت كل أحزانه وأعادته إلى ما قبل الصرخة من مرح وابتسامة. صارت زوجة له، وحبيبة وعشيقة ورفيقة، لا تشبع منه ولا تمل، وهو لها محب مغرم شاعر ورجل كثير الجنس معها، يقضي معها أياما وليالي. عرف من خلالها أن الزوجة الصالحة هي نعمة الله وكرمه للرجل. كلها توافق وانصهار فيه، وإعجاب وانسحار به، وارتباط وانجذاب له. لم يعرفا طعم الحزن والالم، ولم تنزل لهما دمعة إلا حين حان رجوعها إلى بلدها مجبرة بعد انتهاء فترة عملها.

لم يستطع وديع العيش بلا شريكة لروحه وأنيسة، فقد ارتبط بالحسناء إيلينا الروسية، صاحبة الابتسامة الدائمة، والنفس الكبيرة، والسلوك المهذب، والتعامل الراقي، والحب الأنثوي، ركع لها الجمال، وبانت فيها الروعة، وفاح منها عطر الإنسانية، رقّصتْ من حولها بموسيقاها

الانثوية، تتمايل في مشيها آخذة أنظار ناظريها، تشد إليها سامعي نغماتها الرومانسية في كلامها، مبهجة للنفس، طاردة للحزن، متفوقة على الملاك في جمالها، مطيعة لوديع في رغباته.

وديع مع إيلينا قليل النوم، كثير السهر، قوي التعبير، مرهف الحس، رقيق المشاعر، أنيق الكلمات، منشد الغزل، سليم القلب، هادئ الأعصاب، فرح سعيد، آمل متفاءل، راقص مغنٍ. يعجز عن مقارنتها بسميرة؛ فإيلينا ملاك يشحن وديعا بالسعادة ويغمره بالحب، ويقوي مناعته ضد اليأس والتشاؤم، ويمنحه الثقة بالنفس.

انتهى عقد وديع في شركة النفط، وانتهت معه إجازته من دائرته، فعاد إلى وظيفته الأصلية فيها. وصار هو من يوصل سميرة إلى عملها في المستشفى، ثم يذهب إلى عمله في دائرة البلدية، ولكنه يمر على زميل له، يأخذه معه إلى عمله، ويرجعه معه. ولا تزال سيارة عمر ابن بشرى عند وديع على الرغم من أن حالة وديع المادية قد تحسنت كثيرا، وقد باع بيته في ناحية المشرح، وأشترى بيتا في مركز العمارة؛ ولا زالت سميرة لا تعلم شيئا عما يملكه وديع.

قصد وديع لقاء بشرى؛ ليشكو لها التغير الذي طرأ على سلوكه ومبادئه بعد أن لسعته سميرة بخيانتها له، لعلها تريحه وتخفف عنه تأنيب ضميره، وبعد السلام، كلمها :

- يا بشرى، صارت مشكلتي أكبر من سميرة نفسها وخريبط، بل وحتى من طفليّ. فلقد ضاعت مبادئي، وتغيرت شخصيتي، وصرت ذكرا لاهثا وراء النساء، هاملا عائلتي التي أعيش معها بكذب وحيلة وتفكير وتحليل لكل ما تفعله سميرة وتقوله.
- أنت وديع، ذاك الرجل الصادق الطيب النقي. ثق حتى وإن سقطت أحلامك في بئر يوسف، فستمر قافلة العزيز؛ وتتوجك ملكا.

- لا، يا بشرى، والله لقد غيرتني سميرة، وجعلتني أعتدي على أعراض الناس. يا بشرى، لقد ذهبت بنفسي إلى منى، وعاشرتها كما عاشرتُ كرستل وإيلينا ومونيكا، وبت عندها.
- ماذا منى! وأنت من ذهب إليها! كيف وثقت بها؟
- تمنيت أن تكون حيلة منها كي يقتلني أهلها. بينما هي ظنت أنني أحبها وأضحي بنفسي لأجلها كما ضحى خريبط حين غار على سميرة وصرخ عليها أمامي.
- ماذا جرى لك، يا وديع؟
- سميرة ضايقتني، فذهبت إلى منى كي أرتاح منها. ثم أن بابي قد طرقها خريبط فعلى ماذا أخاف ولا أطرق أبواب الناس! فقضيت مع منى ليلتين.
- وديع، أرجوك هل تريد أن تنتقم من سميرة وخريبط من خلال النساء!
- هو انتقام من نفسي ومبادئي قبل كل شيء. ليس لدي شيء أخسره. غيرتْ كل شيء فيّ. كنتُ كثير الجنس معها، وعندما أرجعتها كنت أتجاهلها ولا أقترب منها، والآن صرت أراها زوجة خريبط، فأريد أن أنتقم منها ومنه، بكثرة ممارسة الجنس معها؛ كي أذلها وأذل زوجها. يا بشرى، لقد ارتبطتُ بزوجة خريبط.
- وديع، زوجة خريبط! كيف؟
- كنت أمر على زميلي وقت ذهابي إلى عملي، وأخذه معي، ثم أرجعه إلى بيته وقت انتهاء عملي. فكنتُ أقف قريبا من بيت خريبط. فأوقعتها.
- وكيف استطعت الارتباط بها؟

- هي امرأة أمية، بمستوى قبح سميرة. ولكنها أكثر نظافة، فهي تنظف باب بيتها يوميا. وأنا كنت أتصيدها بهدوء وحذر حتى أوقعتها في شباكي وضاجعتها ثلاث مرات.
- يا لك من شيطان! كيف ذلك؟ أ لم تخف؟
- والله أنا أستقذر المتزوجة، وأرتعب خوفا من الله من التقرب إليها. ولكني أريد أنا أنتقم. وقد انتقمت، فوالله صارت تعشقني بجنون. نلتقي قليلا حين تكون سميرة مع خريبط في المستشفى.
- حقيقة أنك تغيرت كثيرا، هل ستنتقم من خلالي أنا أيضا؟
- أخرسي، أنت أختي وصفيتي، ولن ألوث علاقتي بك أبدا وإن مات بداخلي وديع الضعيف، وصار مكانه رجلا أخرا اسمه حنظل أو شيطان. فأنت من النساء اللاتي هن جوامع تجبرني على خلع نعلي لدخول محرابهن ومحادثتهن بقدسية.
- بل زير النساء. يا وديع، أرجوك أبقَ وديعا البريء. فبيتك جاهز، وأنا سأدفع تكاليف زواجك. استقر أرجوك. أرجوك لا تسمح لتجارب القاسية بأن تربيك وتصنع منك محاربا قاسيا. كن وديعا، أرجوك.
- سأفعل ولكن بعد أن أنهي حسابي مع الخائنة وعشيقها. أنا حزين؛ لأن خريبط لم يعد يقلها. كنت أتمنى أن يبقى معها؛ كي يبقيا تحت أنظاري، ويقعا بفخي.
- هي معه في كل وقت عملهما. فأتركها له، وأهتم بحياتك، فلا يحرق الشمعة ويهلكها إلا تمسكها بخيطها. يا وديع، لا يسرق سعادتنا إلا نحن حين نعلقها بأيدي الخلق وننسى أنفسنا وخالقها.
- دعيني أنتقم منهما ومن نفسي التي كانت بريئة بل غبية جعلتهما يخدعاني ويستغلاني. يا بشرى، أتمنى أن أنام بهدوء وبلا كوابيس

وجهيهما القذرين. لقد تعبتُ في النهار أفكر بهما، وفي الليل كوابيس الخيانة تقتلني. أخجل من غبائي وسذاجتي.

- والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. الصبر الصبر.

****

ذات يوم، أوصل وديع سميرة إلى مكان عملها المستشفى في الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة. ثم رجع إلى بيت زميله؛ ليأخذه معه إلى مكان عمله في دائرة البلدية. وقف وديع منتظرا خروج زميله بالقرب من بيته وبيت خريبط. أطال وديع النظر إلى خريبط وهو ينظف إطارات سيارته خارج بيته، وراح به خياله : لعنك الله، يا سميرة، هذا خريبط الوسخ كنت مجنونة به، ويداه القبيحتان كانتا تلمسانك، وبلا شك كنت تقبلينهما. وأنت، يا خريبط، بيديك هاتين لمست بهما سميرة، وهي الآن معي، وأنا ألمسها! أي عار هذا وأي قذارة هذه! والله لأرمينها لك ولو كلفني حياتي.

منذ سنوات ووديع يتمعن كثيرا بنظراته الثاقبة المخيفة بعينيه الكبيرتين المتطايرتين شرا. ويلاحظ أن خريبط قد صار أكثر بدانة، ومال لون بشرته إلى السواد أكثر، وقل شعره وبيض، وكثرت تجاعيد وجهه، وثقلت حركة جسمه، وبان عليه الكبر، يضطرب حاله برؤية وديع كحال وديع حين يراه كأنهما يتسابقان باضطرابهما حين يريا بعضهما وكأن سميرة تريدهما أن يتنافسا عليها، وتحسنت أموره المادية وصارت سيارته حديثة، ولكن ملابسه لا تزال كما كانت.

ركب خريبط سيارته، ثم خرجت زوجته غنيدة، وركبت معه في المقعد الخلفي. وانطلقا. أخرج وديع هاتفه، واتصل بزميله معتذرا منه بحجة أن أهله اتصلوا به طالبا من زميله طلب الإذن له من مديرهما بالسماح لوديع بالإجارة ثلاث ساعات لظرف طارئ. ثم انطلق وديع.

وصل إلى السوق، فوقف منتظرا غنيدة بنفس مكانهما الذي اعتادا عليه، بعد أن تكمل شراء ما تريده، ثم يذهبان إلى بيت وديع الجديد الذي لا تعلم به سميرة. وبعد دقائق قليلة ركبت غنيدة سيارة وديع. رحب بها وديع : أهلا بك حبيبتي.

غنيدة : أهلا، يا روحي، اليوم أنا مشتاقة لك جدا جدا؛ ولذلك أكملت شراء ما أحتاجه بسرعة.

وديع : وها أنا أسير بسرعة؛ كي نصل إلى غرفتنا.

- اسرع اسرع. فلم أرك منذ أسبوعين تقريبا. كيف استطعت فراقي! أنت من يصبرني على وجدود خريبط معي، أنا لا أريده، ومحتاجة لك.
- كنت مشغولا جدا. حتى أني أنظر إليك يوميا بشوق ولهفة. وحين أومأتِ لي وأنت تركبين سيارة زوجك طرتُ فرحا وتركت عملي وصديقي.
- لا تقل زوجي. هو زوج تلك الحقيرة سميرة، أما زوجي فهو وديع.
- هما الآن معا، ونحن معا. أين غرفة نومنا أين؟
- هل جلبت لي المكياج والملابس التي طلبتها منك؟
- نعم، كل شيء جاهز. سترتدين كل الملابس والحذاء ذات الكعب العالي وتضعين المكياج، وتكونين كأنك مديرة. أكيدا أجمل بكثير من سميرة.
- طبعا أنا أجمل منها. ولكن الغبي يلهث وراءها ويتركني؛ لأنها تغريه بملابسها ومكياجها وأموالها. وأصدقاؤه يلحون عليه بأن الارتباط بالنساء رجولة وشجاعة ومهارة. اسرع يا حبيبي، أنا أموت شوقا لك. قبل أن أنسى، لماذا يكرهك خريبط؟ عندما يراك يتعصب وينزعج ويشتمك.

- ها قد وصلنا، يا حبيبتي، أنا مشتاق لك جدا جدا.
- طيب. أمهلني دقيقتين؛ لأجهز نفسي لك.
- وأشياؤك بنفس مكانها. لا تتأخري علي.

بعد أكثر من ساعتين، قام وديع، وأخذ يلبّس غنيدة ملابسها. ثم حملها نحو باب البيت. وبعدها وضعها؛ لتخرج إلى السيارة وتركب. وما أن ركبا وانطلقت السيارة، حتى قالت لوديع : حبيبي، هل أرحتك؟ هل قصرت معك في شيء عدا إلحاحي على البقاء معك؟
ابتسم لها وديع : لا، يا قلبي. أنت جميلة ورقيقة ومريحة. وأنا أحبك.
غنيدة : أ صحيح أم أنك تجاملني؟
- طبعا صحيح، فلماذا أجاملك! ولا تقولي لي؛ لأن خريبط لم ير ما أراه فيك من جمال.
- نعم، هو يذمني. والقذرة هي من جعلته يتكبر عليّ.
- سميرة! تبا لها، ولقباحتها.
- وديع حبيبي، لو طلقني خريبط هل تتزوجني؟
- ما هذا السؤال؟ هل بينكما مشكلة لحد الطلاق؟
- لا، أنا أسألك فقط. صرت أكرهه كثيرا، لا أطيقه. أنا سكتُ عن خيانته، وهو لم يتوقف يوما واحدا عن ذمي وإهانتي وشتمي على الرغم من أنني كنت كخادمة له ولأهله. وكنت أسعى جاهدة لإرضائه. ولكن لا يرضيه شيء. فصرتُ أهمله.
- لأجل أطفالك تحمليه لعله يرجع إلى رشده.
- كأنك لن تتزوجني إذا طلقني خريبط! وكيف أتحمله فهو مزعج جدا وغليظ وقليل الجنس وخصوصا بعد أن رأيت منك الحب والغزل ومتعة الجنس، صرت لا أطيقه.
- أنا أحبك وأتزوجك طبعا، ولكن أولا أنصحك فقط.

- سابقا كنت أريده أن يتغزل بي ويسمعني كلمة جميلة، أما الآن فلا أريد منه إلا أن يحترمني، ويكف عن خيانته لي. وبعد أن ارتبطتُ بك، صرتُ أريد الطلاق منه وزواجك. أنا لا أطيق رؤيته، ولا أتحمل فراقك. ساعدني، يا حبيبي.
- أمهليني هذه الفترة، وأنا سأتصرف.
- أرجوك خلصني منه، لا أريده. وأرجوك خذني إليك، فأنا محتاجتك والله.
- إن شاء الله، يا حبيبتي. والآن رتبي أشياءك، فقد وصلنا لبيتكم.

توجه وديع إلى عمله، بعد أن ذهبت غنيدة إلى بيتها. وأخذ يكلم نفسه : ماذا يجرى! يلعن الخيانة وأهلها. غنيدة تكره زوجها وهي معه وتريدني، وخريبط لا يريد زوجته وهو معها ومرتبط بسميرة، وأنا لا أريد سميرة وأنا معها ولا غنيدة، وأريد غيرهما بعد أن أنتقم من سميرة وخريبط؛ وأنا أريد الانتقام من سميرة بطلاقها، ومن خريبط بغنيدة؛ وسميرة تريد الانتقام مني بخريبط، وغنيدة تريد الانتقام من خريبط بيّ. ماذا يجري!
ويبدو أن خريبط بعد أن ضغط عليه أهله وزوجته الآن يتمنى نسيان سميرة، وكذلك سميرة تتمنى نسيان خريبط، أو أن كلاهما يتمنى لو أنه لم يرتبط بالآخر. وكذلك أنا تمنيتُ لو أني لم أرتبط بها، أو طلقتها بعد أن عرفت خيانتها.
وما هذه الظاهرة الجديدة؟ تسمية جديدة للعلاقات والأشياء. غنيدة تسمي زوجها خريبط زوج سميرة، وتسميني زوجها. وسميرة تسمي خريبط سائقها وهو آمرها.
مر يومان، ولا تزال كلمات منى المتوسلة ترن بأذني وديع، ومنظر دموعها يفزع روحه، ويأجج ضميره عليه؛ ولا يزال يحاول إبعاد شبح انكسار منى من أمامه الذي يطارده ليل نهار حين توسلت به أن يتزوجها؛ ليسترها وينقذها من أخيها وابنه بعد أن شكا بها طامعينِ بأموالها وأملاكها

على الرغم من أنها أعطتهما قطعة أرض سكنية ومبلغا من المال. لم يخبر بشرى باقتراح منى وتوسلها به في اتصالاتهما اليومية المعتادة خلال هذين اليومين، ولكن في ساعة متأخرة ضغط ضميره عليه ولم يمهله ساعات حتى تشرق الشمس فيتصل ببشرى، فاتصل بها، وأخبرها بالأمر.

رفضت بشرى زواجه منها قائلة إنها حيالة، وهذه لعبة من ألاعيبها؛ لتوقعك زوجا لها. ولكنها لم تجد ما تقوله بعد أن خبرها بأن منى سلمته شيكا بمبلغ خمسين مليون كضمان إن حدث منها ما لا يطمئنه؛ وأنه متزوج من سميرة الخائنة التي تكرهه، فما المانع أن يتزوج منى؟ علما أن منى ليست مرتبطة بغيره، وهي تحبه وتهتم به. وكذلك يمكنه أن يطلقها بأي لحظة، فالمهم الآن هو انقاذ حياتها من أخيها وابنه. وأخيرا، شكرت بشرى وديعا قائلة له "أنت نبيل، يا أخي، أنا أفتخر بك. ولعل منى تخفف عنك أوجاعك، وتداوي جراحك التي سببتها القردة الشريرة".

يستشعر وديع السعادة والفرح، وتطمئن نفسه وترضى حين يتذكر أنه مصدر سعادة وحب وابتسامات لكل من منى وغنيدة وسميرة ممن أرتبط بهن، وأنه مصدر أمان واستقرار لكل من ياسمين وسيف وبشرى. وسرعان ما يحتله القلق والاضطراب، ويغير شكله ويكفهر وجهه حين يتذكر الصرخة وخريبط وسميرة. فلا تؤثر به الصرخات المستغيثة لكل من ياسمين وسيف وسميرة وغنيدة، ولا تخيفه الصرخات الغاضبة سواء كانت من الناس أو خريبط أو أهل منى أو أهل غنيدة. ولم يهتم لصرخات ندم سميرة ولا الصرخات التي تتود بها إليه؛ فلا ندمهما ونكسارها يرقق قلبه، ولا تودها له يغير فكرته عنها، ولا مغرياتها من المال والجنس تحيده عن قراره.

الفصل السادس

يا سميرة، ما قصتك والرجال؟ لماذا تحبين مخالطتهم وممازحتهم؟ بهذا السؤال فاجأها وديع. فقاطعته غاضبة بصوت حازم : أي رجال وأي مخالطة وممازحة؟ ومتى تتوقف عن كذبك وافتراءك عليّ؟

- جميع من يعرفك يشهد لك بأنك كثيرة الاختلاط بالرجال والممازحة لهم حتى أن الناس تسميك سمير لا سميرة. ما الغاية من ذلك؟ ثم لماذا لا تفكرين بأهلك وأطفالك من الناس وكلامهم وعارهم؟
- انتبه لكلامك الجارح والمسيء والكاذب. أنا لا كما وصفتني.
- دعك من أساليبك الملتوية وصوتك العالي وهروبك من النقاش. وأخبريني ما قصة هذا الفيديو، وأنت تضحكين ضحك بنات الشوارع مع رجل غريب وأنت التي تصورينه؟
- هو مجرد مزحة بسيطة مع هناء وحسنين.
- غريب وهل حسنين أخوك؟ أم هو زوجك؟ والأغرب أنك أنت التي تصورين. يعني أنك لا تستحين ولا تخافين، وأن أهلك يقبلون بهكذا اختلاط وممازحة مع الرجال الأجانب.
- أنا موظفة وهو زميل لي ولهناء. لا شيء غير ذلك.
- ما دمت موظفة فكل الموظفين هم زملاؤك، وكل المراجعين هم من مدينتك، وكل الرجال هم من طموحك في مخالطتهم وممازحتهم. أو أنك امرأة مثقفة ومنفتحة فتخالطين كل الرجال. لا أعتب عليك ولا على أهلك ولكني أعتب على عشيقك كيف سمح لك!

- في كل موضوع وبلا مناسبة تذكر خريبط.
- اسمعي، أنا لا أثق بك، وواثق أنك على علاقة بخريبط؛ لذلك تركتك معه لا أخاف عليك، ولا أغار. ولم أنقلك إلى قسم آخر، وأبات خارج البيت وأسافر أياما وليالي؛ لأنه لا يوجد شيء يمكن اصلاحه، ولأنك لخريبط ومعه. ولذلك أنا أحاول أن لا أناقشك أبدا، فكل شيء انتهى.
- إذن طلقني.
- والله لأطلقنك بعد أن يكبر أولادي. والله أنا أراك زوجته، وأعتبرك صديقة لي أو زميلة أو مجرد معرفة في سكن واحد. بالمناسبة أنت تنادين الجميع بكناهم إلا خريبط فأنت تنادينه باسمه؛ لأنك تغارين عليه من زوجته.
- أنت مجنون وكثير الشك، ولا تؤمن بالله وبالقسم.
- أنا لا أريد منك قسما ولا شرحا ولا إجابة ولا توضيحا. فكل شيء واضح لي، يا سمير، أو يا حبيبة خريبط. المفروض أنك تتجنبي الرجال؛ لأنني كثير الشك، ولأجل سمعة أهلك وأطفالك وخصوصا أنت تعلمين قذارة مكانك من زملائك وزميلاتك.
- يا وديع، افهمني. أنا فقط كنت أمازح هناء وهو معها. وسأمسح الفيديو حالا. انتهى كل شيء.
- تمازحين هناء وتقولي له حسنين أنت اليوم المدير! تنادينه وتوجهين كلامك له وضحكتك له! ثم حل هكذا أمور عندك بهذه السهولة بمسح الفيديو؟ هذا هو الحل! أمرك مضحك، بل نقاشي معك مضحك. الأولى بي عدم مناقشتك وتمشية الوقت فقط.
- أنت تعشق المشكلات؛ لذلك لا تقبل بحلولي. أنا مسحته، فيجب أن تنهي أنت المشكلة.

تركها وديع ووقف في باب بيته مذهولا متعبا لا يعرف أين يذهب. لحقته سميرة : يا وديع، كفى من الشك. لقد تعبنا، وكبرنا.

أقبلت إلى وديع نداء ابنة عمه : السلام عليكم، أخي وديع.

وديع : أهلا وعليكم السلام. كيف حالك وحال أطفالك وزوجك؟

نداء : الحمد الله. لم أرك منذ سنوات، وأنت لا تسأل عني، يا أخي.

- والله، أنا مقصر معك؛ لأنني مشغول جدا. فأنا آسف يا أختي. تفضلي إلى بيتي، يا نداء.
- شكرا. فأمي تنتظرني. مع السلامة.
- مع السلامة.

ذهبت نداء، فكلمت سميرة وديعا بغضب وحدة وابتسامة شيطانية : يا وديع، لقد انكشف كل شيء بينك وبين ابنة عمك نداء. أنا سمعتُ كل ما دار بينكما، يا أيها الخائن. والله لو أتت إلينا ثانية لضربتها وطردتها قبل أن تدخل باب بيتنا. على الرغم من ثورة غضب وديع أجابها بهدوء : خيانة! ومع ابنة عمي! ونحن على باب البيت وأنت بقربي إلا أنها لم ترك بل أنا أراك فقط! ابنة عمي تسلم عليّ وأنت بقربي، هذه خيانة! وعندما أنهاك عن مخالطة الرجال الغرباء وممازحتهم والاختلاء بهم تسميني كثير الشك! مجنونة. وغضبي الآن ثار ولا بد أن أضربك والله. تعالي. أدخلها إلى غرفة النوم وهو يضربها، وهي تصرخ بأقذر كلام سوقي : أنت خائن، أنت تكرهني، يا كذاب يا مفتري. أنت على علاقة بنداء سأفضحك. أنت تشك بي، وأنت الخائن، وتريد أن تنال مني؛ لأنك خائن، وأنا لست خائنة.

يدرك وديع تماما أنها تبالغ في ذمه أمامه وأمام الناس وصديقاتها، ولكنه لا يستطيع توقع ما بداخلها من ذم له، ويستحيل رضاها عن شيء أبدا. ذات يوم أخذت تصرخ بالقرب من الباب الخارجي؛ كي تُسمع الناس ذمها له، ومما ذمته به، هو : أنت تقول لي إنكِ لستِ امرأة، وهذا صحيح؛ لأنني لا أرى رجلا أمامي. والغريب أنها رأت هذا العبارة في الفيس بوك، من خلال النت الذي دفع وديع مبلغ الشبكة والاشتراك. كأنها تقول له إن الماء يزيد العقرب سما. ووديع يقول في نفسه : هذا سلوك وكلام من لا تربية لها. هي من بنات الشوارع. والله في بعض الأحيان تثير شفقتي؛ لأنها غبية جدا.

ثم قالت له وهي في نفس مكانها : أنت تذكر خريبط في كل شيء بيننا. فسمع أخوه وأبوه ذلك. وحين سألوا وتحققوا عن خريبط وقصته معهما، عرفوا أنها خائنة، وفهموا أن وديعا يعاني، وأنه يريد تزويج ابنته؛ ليطلقها. فحثوه كثيرا على الزوج، ولكنه مصر على زواج ابنته أولا وطلاق سميرة ثانيا.

ذات ليلة لم يستطع وديع النوم، أمعاؤه ومعدته تؤلمانه كثيرا. ولم يخبر سميرة بألمه. أجبر الألم وديعا على الذهاب إلى المستشفى. ودخل وديع المستشفى، فستقبله زميله (عماد) الذي نقل خدماته من البلدية إلى الصحة قبل شهر ونصف تقريبا، وكذلك هو صديقه المعروف بالانحراف بعد أن انحرف وديع، وعدوه قبل أن ينحرف. وقفا يتحدثان قليلا، وإذا بسميرة خرجت من قسمها فرأت وديعا وعمادا. سلمت عليهما. وأخذ عماد يمازحها ويكثر لها الابتسامات. وما إن قال لها : ما شاء الله، يا سميرة، اليوم جمالك يشع وعطرك يفوح أكثر من أمس. هل أنت بخير، يا سميرة؟ أجابته سميرة مجبرة معرضة عنه : نعم، أشكرك.

والتفتت إلى وديع : هل أنت بخير، يا وديع؟ لماذا أنت هنا؟

وديع : يا عماد، هل تعرفان بعضكما؟

عماد : نعم. وهل تعرف أنت سميرة؟

سميرة : هو زوجي.

عماد : هو زوجك! والله لم أعرف ذلك على الرغم من أنني صديق وديع. الحمد لله إذن نحن أهل. يا وديع، نعمت المرأة سميرة، وطبخها لذيذ.
وديع : كيف استطعت أن تعرفها، وقد بدأت عملك في المستشفى منذ شهر ونصف تقريبا! وهل عملك معها في نفس القسم؟
عماد : لا، ولكن نحن كلنا الموظفون عائلة واحدة. صديقي وديع، أنا أستأذن. مع السلامة.
سميرة : مع السلامة.
بعد أن ذهب عماد، سألها بغضب وألم وحسرة : يا سميرة، أنا أعرف عمادا جيدا، هو رجل قذر يبحث عن النساء وأساليبه شيطانية. وقد بدأ عمله منذ شهر ونصف وبقسم غير قسمك، فكيف حصلت هذه العلاقة المتينة بينكما حتى أنه يسميك باسمك ويتغزل بك ويعرف طعم طبخك؟
سميرة : هو مجرد سلام، فلا علاقة بيننا.
وديع مستغربا : هو يقول لك إنك اليوم أجمل من أمس! انتبه لك أمس واليوم! لو كنت غير متزوجة لقلتُ إنك تريدين أن تتقربي لرجل وتوقعيه، ولكنك متزوجة فلماذا هذا التودد والتقرب للرجال؟
سميرة : لا تودد ولا علاقة، فقط أنا موظفة، وهو موظف. قل لي ماذا بك؟ هل أنت مريض؟
وديع : نعم، أنت موظفة وعليك أن تمازحي الموظفين والمراجعين.
سميرة : أنا أسألك ماذا بك؟

- قلت لك إني مريض، لم أستطع النوم ليلة أمس.
- أكيد عندك وجع في القولون أو المعدة. ولماذا لم تخبرني ليلة أمس بوجعك، فعندي علاج ومسكنات؟
- لا أخبرك، ولا أطلب منك مساعدة؛ لأنك تعيريني بمساعدتك، وتمنين عليّ.
- صرت تتحسس مني كثيرا! لقد تغيرتَ كثيرا، يا وديع.

مر موظف بالقرب منهما، فتركت سميرة وديعا، وتوجهت له تكلمه. فما كان من وديع إلا أن تركها ونصرف. وما كان منها إلا أن لحقته

مسرعة : وديع، وديع، انتظرني سأجلب لك علاجا. وديع من دون أن يلتفت إليها : لا أريد منك شيئا. أبقي مع زميلك أحمد نعيم. فواجبك أن تكلميه وتجامليه وتركضين وراءه، وهو غير مهتم لك، وليس واجبك أن تساعديني. أحرجتْه بوقوفها أمامه؛ كي ينظر لها ويكلمها : وديع، أرجوك كلمني، أرجوك أنظر إلي. أرجوك، أبا ياسمين.

وديع : أنت غير محترمة، ولا تحترمين بيتك وزوجك وأطفالك وأهلك. أنت ترخصين نفسك حتى لمن هو معروف بالدعارة. أوليس أحمد نعيم هو ذلك الموظف الذي حدثتني عنه والذي هو كأبيه في امتهانه للدعارة، وتقاضيهما أموال من بعض الأطباء لجلب بعض النساء الداعرات لهم؟

قاطعته سميرة : نعم، أعرف ولكني أردت أن أسأله عن بعض الوثائق.

وديع : ماذا يقول عنك الناس وأنت تقفين معه، وهو معروف بعمله؟ والغريب أنه لم يحترمك ولم يقف وأنت تكلمينه، والأغرب أنك لم تخجلي، بل كنت تركضين وراءه! انظري خلفك فذاك أبو أحمد، نعيم، وصديقه نعمان ينظران لك خفية بين الحين والآخر.

سميرة : أبا ياسمين ووو

وديع بغضب : ربي ياسمين وعلميها أن لا ترافق الرجال ولا تمازحهم؛ كي تضحك عليك وتقول لك أنت أمي وأنت التي تمازحين الرجال. والله أنا أخجل منك واستعار. وهذا وجعي منك أنتِ.

لم يستطع وديع تحمل وضع سميرة على الرغم من أنه يراها مجرد خادمة لطفليه وزوجة عدوه الذي يريد الانتقام منه ومنها بمجامعتها؛ وعلى الرغم من تغير سلوكه من التدين إلى الانحلال إلا أنه بين الحين والآخر يغضب من تصرفاتها ويفقد السيطرة على أعصابه. وهي لم تستطع تغيير طباعها كليا نحو الأفضل الذي يريده، ولكن قل عنادها ونديتها.

على الرغم من أن ناقوس الخطر يدق معلناً تحذيرها منه إلا أنها لا زالت لا تعرف معنى الحشمة والعفاف والاحترام. لحظ وديع اختلافا في سلوكها، وخفة في حدة غضبها وتعاليها وذهابها إلى أهلها، وتبديل خطتها

واضح من الهجوم على وديع وتهديده إلى الدفاع بود وتذلل بأنوثتها ودموعها ومحاولة إغراءه مرة بمالها وأخرى بالجنس، واظهار قوة التمسك بوديع كزوج لها بعد أن هاجمها الشيب، وكثرت تجاعيد وجهها، وزاد وزنها وقبحها وانتفاخ عنقها وتجاعيده، وأسود لونها، وانجذبت إلى قوة شخصيته ورجولته، وتذللت لتعاليه وكبريائه، وهي ترى كماله المادي والمعنوي كأن الأنا عندها قد زال جزء منه، فلاح لها من وديع.

لم يستطع وديع التخفي عن غنيدة إلا لأقل من سنتين، فمن خلال زوجها خريبط عرفت أن وديعا هو زوج سميرة؛ لكن ثورة غضبها عليه لم تتغلب على دهائه، وتوقه للانتقام لم يمنحها فرصة للانفلات من قبضته. حب انتقامها من خريبط وسميرة التقى بحب انتقام وديع من خريبط وسميرة مكونا علاقة جنسية، استطاع من خلالها وديع امتلاك غنيدة الزوجة البسيطة الريفية الفقيرة المحرومة من حنان الأب حتى قبل أن تصل الثلاثين من عمرها، ومن حب الزوج منذ أول زواجها قبل أكثر من عشر سنوات وحتى بعد أن أنجبت أربعة أطفال بلغ عمر أولهم عشر سنوات، لم تهمل زوجها وأطفالها ولم تقصر في واجباتها إلا بعد خيانة زوجها، والتفاف وديع عليها، ووضعها في دائرة لا تستطيع الخروج منها، عطشها العاطفي اعتاد على الارتواء من لسانه المعسول، واهتمامه الساحر.

اقنعها بأنه لم يعرف في أول علاقتهما بأنها زوجة خريبط، وغير متأكد من خيانة سميرة. وحين عرف وتأكد، لم يخبرها؛ لأنه لا يريد أن يزعجها بشيء؛ وأنه لو قال لها لفعلت ما تفعله الآن من عصبية وانزعاج وتعكر مزاج، وهو يريد أن يستمتعا بحياتهما لا أن ينشغلا بخريبط وسميرة كما يستمتع خريبط وسميرة نفسهما ببعضهما.

أخبرت غنيدة وديعا أن خريبط يشتمه حين يراه ويشتم سميرة معه. ويذكره بسوء، وكان حذرا منه، قائلا إن وديعا يخفي شرا له، ويريد أن ينال منه، وإنه لم يفعل شيئا لزوجته، بل هي رخيصة وتلهث وراءه، وإنه تركها وأبتعد عنها ولا زل وديع يلاحقه وينظر له بحقد وعداوة وكره.

بكل ذلك أخبر خريبط أخوته عن وديع موصيهم بأنه لو حدث له شيء فوديع هو المسؤول؛ لأنه هو العدو الوحيد.

بعد أن قضيا وقتهما في بيت وديع الجديد، أوصلها وديع لمكان لقائهما، وهي توصيه : وديع حبيبي، أنت تحبني، وأنا أحبك، وعندما تطلق سميرة، تذكر أنني سأتطلق من خريبط ونتزوج. والله يا حبيبي، لا أستطيع أن أرتاح معه ولا أستطيع أن أشعر بالسعادة، حتى حين يضاجعني، أفكر بك وأتخيلك أنت من يضاجعني لا هو.

راح وديع يكلم نفسه : اللعينة سميرة غيرتنا، فجعلتني أنحرف عن مبادئي، وأرتب لطلاقها، وأترقب خريبط؛ وجعلت غنيدة تخون زوجها، وترتب للطلاق منه والزواج مني، ويوما ما ستخطأ باسمه وتذكر اسمي أمامه كما فعلت سميرة معي؛ وجعلت خريبط يخون زوجته ويبتعد عنها، ويخاف مني ويحذر. وجعلت خريبط يفقد السيطرة على زوجته وأولاده، فقد صار أولاده الاربعة لا يحترمونه ولا يسمعون كلامه.

كلي حسرة على مصير ابني، سيف المسكين الذي سيواجه المجتمع كله بماضي أمه الأسود الذي وسمته به كعار على جبينه.

أدرك تماما أن ياسمين وسيف قد ضاعا حتى أنه ندم على ارجاع سميرة إلى بيته بعد الصرخة. فسيف قد بلغ من العمر الثالثة عشرة سنة، وهو لم يتعلم شيئا من أبيه، ولا يزال إلى الآن يبكي ويهرب ويخاف من كل شيء، ولا يُعرف كيف سيحمي أخته ياسمين التي بلغت الخامسة عشرة سنة، وهي منكسرة مهزومة مرعوبة من لا شيء؛ سلوكهما عدواني، وأفعالهما هجومية، وتصرفاتهما غريبة، وحزنهما دائم، وسعادتهما غائبة، ونفساهما متحيرتانِ، تسودهما الوحدة، ولا تحزنهما الغربة، ولا يُسعدان بالقادم، ولا يفتقدان الغائب، يهاجمان بلا رحمة من دون سبب، لا يعرفان النقاش، ولا يدركان الكلام، ولا يصدر منهما الرضا، والثقة عندهما معدومة.

الفصل السابع

صرخت هناء مرعوبة مذعورة باكية بوجه عشيقها ميثم : لقد صورنا. فانذعرا وارتبكا. وصار كل منهما يستر نفسه. هو غطى عورته، وهي رتبت قميصها وسترت صدرها ورقبتها، وفخذيها. ثم لحقته ووجها ملون بصفرة الخوف، وسواد كحل عينيها الذي أنزله الدمع كأنه سواد العار، وحمرة شفتيها على شفتي عشيقها الذي تركها وخرج من المستشفى وهو يرتجف، وقبح الجرأة في الفعل والجسارة والهجوم على وديع، ولونُ مكياجها الذي شوهته ثورة هجوم عشيقها عليها في سيارته المغطاة والمركونة في ساحة المستشفى محتميينِ بالغيوم التي احتشدت بها السماء، وتناوبت على حجب أشعة الشمس، مستغلينِ البرد والمطر.

واجهت وديعا بوقاحة جريئة ووجه مكفهر وصوت غاضب : ماذا تريد مني؟ لماذا تراقبني وتتجسس عليّ؟ ماذا تريد بالضبط؟ أ ظننت أنك تستطيع إيقاعي واللعب عليّ! ثق أن لي أهل وأخوان لا يرحمونك. أنا لم أفعل شيئا خطأ، هو بائع مواد غذائية، وأنا اشتري منه موادا وأهديها إلى الفقراء. وأنا لا علاقة لي بزوجتك، ولا أريد التدخل بينكما. كلمني، يا وديع، لماذا تنظر إلي بهذه الطريقة وأنت ساكن؟

حاول كسر صمت ذهوله مما يراه فيها كمحاولته للتنفيس عما يختنق به من متناقضات، وصد الصدمة العنيفة التي تعرض لها من قبل هناء، فأجابها : أنا في غاية العجب، رأيتك بعيني وأنت معه كزوجته، ورأيتُ كل شيء وصورتكما. وأنت لا تخجلين من المجيء إلي ولا من الكذب علي.

- بل أنت تكذب، وتريد أن تنتقم مني؛ لأني صديقة زوجتك؛ والجميع يعلم ما بينكما من خلافات كثيرة منذ زمن. هل يرضى الله بما تفعله بي وتعذبني به؟ هل هذا جزائي وأنا أدافع عنك؟ هل هذه هي

الرجولة؟ ألا تخاف الله؟ ألا تخاف على ابنتك وعرضك؟ هل يقبل ضميرك الانتقام مني وأنا لم أفعل شيئا؟ لماذا تسكت وتنظر لي بهذا الطريقة؟ هل تريد أن تخبر أحدا عني؟ أعلم إنني جاهزة لأقسم بالله وكتابه أنه لا شيء بيني وبين ذلك الرجل.

- فعلا، يجب علي أن لا أستغرب. فالوقاحة قد سادت. اسمعيني، أنا أستطيع أن أصف صدرك كاملا، وأحدد مكان الشامات عليه. وأعرف ألوان ملابسك الداخلية. ومعي فيديو كامل يثبت ما أقوله وما تنكرينه من بداية لقائكما إلى أن قذف. فما رأيك؟
- والله، قلبي يؤلمني، فانهِ الموضوعَ. فلا شيء بيننا. إلى أين أنت ذاهب؟ كلمني، يا أبا ياسمين، ولا تتركني أبكي. أنا أختك. ماذا جرى لك؟ لماذا لا تقدر الإخوة؟ أنا أخاف عليك من أهلي؛ لذلك لا أريد أن أخبرهم، ولكن إذا أجبرتني فسأخبرهم.

تركها وديع وخرج، وبعد أن وصل إلى باب المستشفى، اتصلت سميرة به : ألو. أين أنت؟

- أنا قريب من باب المستشفى. لماذا؟
- إذن تعال إلي. وما الذي حصل بينك وبين صديقتي، هناء؟
- حسنا، اخرجي إلي، فأنا قريب جدا.

أوقف وديع سيارته بالقرب من سميرة منتظرا إياها تركب معه، ليذهبا إلى بيتهما. وتفاجأ بظهور هناء، وركوبها معهما في سيارته، وهي تبكي مرددة : لماذا تفعل بي هكذا، يا أخي، يا أبا ياسمين؟ أنا أرتاح لكما وأعزكما وأجلكما، وأنت تعرف أخلاقي وطيبة قلبي.... وهو ينظر إليها بغرابة أكبر من غرابته وهي مع عشيقها. فتقاطع سميرة كلام هناء المسترسل وسكوته المتأمل : يا وديع، هذه هناء الصديقة الغالية والأخت العزيزة التي أرتاح لها و... فيجيبها بعينين

متفجرتين استغراب ونفس متوترة وصوت حازم : أنا لا أفهم شيئا.
ماذا تريدان مني الآن؟ توجه هناء كلامها إليه : أنا أختك، يا أخي، فلماذا لا تكلمني؟ ولا تريدني أن أسلم عليك وأكلمك؟ وو
يا هناء، أنا آسف. أرجوك كفى، انهي الموضوع. وأنا آسف مرة أخرى. وكذلك أنا أعتذر لك، يا سميرة. أنا متعب جدا، وأريد أن أذهب؛ لأنام. فأعذريني، يا هناء. انزلي ودعيني أذهب. انزلي.
نزلت هناء من سيارة وديع، وتوجها إلى بيتهما. وأثناء الطريق، سألها وديع : ما مشكلة هناء؟ وماذا قالت لك؟

- هي تقول إنك كنت تتجسس عليها حين كانت مع صديق لها يريد خطبتها. وإنك رأيته وهو يقبلها. وتريد أن تفضحها. حرام عليك، يا وديع، هي امرأة مطلقة، وتعيش الوحدة والحزن، وتريد أن تظفر بزوج....
- والله، لن أفضحها أبدا. ثم إنني لم أرَ ما قلتِه قط. كل ما رأيته هو أنها جاءت إلي حين كنت أنتظر خروجك، وبكت وأكثرت الكلام في أنها مريضة، وهي تعزني وأنا أخوها.
- كيف يا وديع؟
- لا أعرف سليها. ثم هل من المعقول أن رجل يقبل امرأة في الشارع وأمام الناس؟ أنا أظن أنها تكذب عليك أو تمزح معك أو لها غاية لا أعرفها.
- لم أفهم شيئا كأنكما تلعبان عليّ، أ هي أحجية لا أدري كنهها! ثم لماذا ملابسك مبتلة بهذا الشكل من المطر، هل نزلت من سيارتك؟
- يا سميرة، اتركي هذا الموضوع السخيف الذي هو أسخف من صاحبته. أنا متعب جدا ومرهق وأريد أن أنام، وإياك أن تقطعي علي نومي.

- تنام وتتركني؟ أنا أشعر بالبرد، حبيبي. وأريدك أن تدفيني.
- سميرة، أرجوك أنا متعب جدا وأشعر أنني سأمرض. وفي حال تردي حالتي الصحية، فلتتصل ياسمين بأخي عباس كي ينقلني إلى المستشفى.
- سلامتك حبيبي.

شعر وديع بصدمة وضيق من ملاحقة هناء له واصرارها على تبرير فعلتها ومغالطته بأنها ليست مخطئة على الرغم من مشاهدته لها ومعرفته تفاصيل جسمها وملابسها، واحتفاظه بالفيديو. كأنها تريد أن تعاقبه بملاحقتها له وجرأتها. جزع منها ومل من كذبها فثار على نفاقها بكل غضب واستغراب حين أكثرت الزيارات له إلى بيته، وما كان جوابها على صده لها وغضبه عليها إلا دموعها وانكسارها وتوسلها مع الانكار التام لفعلتها. لم يكن وديعا مهتما لها، بل كان اهتمامه منصبا على مقارنة سلوكها وردة فعلها بسلوك سميرة وردة فعلها على الصرخة وخريبط خصوصا أن صداقة سميرة وهناء متينة جدا وقديمة، وأسلوبهما واحد في التعامل، بيد أن سميرة منفتحة كأنها أوربية، وهناء متظاهرة بالحشمة والخجل والحفاظ على سمعتها مرتدية العباءة كأنها الإسلامية متشددة؛ وهناء أكثر طولا وسمنا رغم أن كلتيهما لا خصر لها.

بعد حادثة هناء وعشيقها، أخذت سميرة تقبل يده وهو يسوق متوجهين من المستشفى إلى بيتهما، بعد انتهاء وقت عملها، قائلة له : وديع حبيبي قلبي، أنا أحبك كثيرا، يا أيها الرجل الشجاع. فهم وديع أن هناء أخبرتها بمشاجرته مع ميثم. لم تتوقف عن تقبل يده ومدحه كادت تطير فرحا مرددة : حبيبي، وديع، لقد أرعبت ميثم، هو خائف وهارب من مكانه وهو المقاتل والقائد. أنا فخورة بك، لقد أتصلت بياسمين وسيف وأخبرتهما

بشجاعتك. وصلا بيتهما ولا زالت على حالها، ولا زال هو يراها فعلت كل ذلك مع خريبط حين صرخ عليها أمامه. ولكن حالهما تغير حين أكدت له موضوع التصوير وطلبت منه أن يريها هاتفه. بدأ الشك يغير حالها بعد نفيه للتصوير ورفضه اعطاءها هاتفه، وذكرت له أن هناء أكثرتْ الشكوى من وديع إلى الموظفين. حتى أن زميلنا الموظف نعمان قال لها يجب أن تخبري أهلك ما دام هو يضايقك. ولكنها سكتت.

عرف وديعا من سميرة أن هناء مرتبطة بميثم الذي كان عاملا في محل خياطة، فقير الحال متزوج وله خمسة أولاد، وهي تحبه وتتمنى أن يتزوجها، وتساعده بالمال دائما حتى أنها هي من تدفع ثمن الوقود لسيارة صديقه التي يسوقها حين يلتقيان. هي لم تخف من وديع في أن يفضحها، بل هي تخاف من أن يقع هاتفه بيد غيره فينفضح أمرها.

شك سميرة بهناء أثار غيرتها على وديع رغم ارتباطها بميثم. وعزز شكها اختلاف أقوالهما، وفهمها أن ذم هناء لوديع بقصد ابعاد سميرة عنه كي ترتبط به هي. ولا تزال سميرة تردد قول هناء "لا يحق لوديع التدخل في حياتي، هو ليس زوجي". كلمة (زوجي) تفجر غضب سميرة على هناء. فصارت تكثر ذم هناء أمام وديع، وهو يدافع عنها قائلا : هي امرأة مؤدبة وخلوقة.

- بل إنها تلهث وراء الرجال. وتعشق الجنس. وكثيرة الكذب واللف والدوران والافتراء والرياء والنكران والوقاحة والمجابهة بكل صلافة. وأشك في أنها تريد أن تستغل ما بيننا من خلافات وترتبط بك بعد أن وثقت بك وعرفتك جيدا.
- هي صديقتك المقربة منذ أن عرفتك.

- هي زميلتي في العمل، وليست صديقتي. حالها حال بقية زميلاتي. وكلهن مرتبطات، فهدى مرتبطة بمشغل المولد الكهربائي، وشيماء مرتبطة بالحارس الأمني، وندى مرتبطة بالخياط، وباسمة مرتبطة بموظف الخدمات، وفاتن تزوجت زوج صديقتها المقربة. فما شأني بهن؟
- ولكن شيماء متزوجة؟ وكذلك باسمة!
- شيماء تقول إن زوجها لا يضاجعها كثيرا وليس برومانسي، وباسمة تقول إن زوجها عصبي. واضح أنهما تبرران خيانتهما ليس إلا.
- وواضح أن باسمة اختارت موظف الخدمة حتى لا يشك أحد بعلاقتها به.
- واضح أن العفيفات قليلات. تصور حتى سهاد المريضة هي أيضا مرتبطة بحلاق، وقد استغلها باسم الحب وخدعها وأخذ منها أموالا. هل تعرف أن الكثير من النساء هن خائنات لأهلهن وأزواجهن؟ تصور أنني ألتقيت بإحدى الموظفات اليوم في الكافتيريا وهي حزينة. فسألتها لماذا حزينة؟ فحدثتني عن ألمها وكثرة مشكلاتها مع زوجها. ثم قالت لي : لقد اشتقت لحبيبي الذي كان يريحني. فقد مات وتركني لهذا الزوج المزعج. ألا ترين أني ألبسُ قميصا أسود!

فقلت لها : من حبيبك؟ فقالت : ألا تتذكرينه! لقد رأيتُه معي قبل سنوات حين كنتِ مع أخيك ومعكما طفل مكسورة ذراعه. وسألتني أنتِ عنه، فأخبرتك بأنه حبيبي. قلت لها : صحيح، لقد تذكرت. واسمه سعد. وقلت لي : أنك بحاجة إلى حمام لتغتسلي غسل الجنابة. فضحكنا. ثم افترقنا. تصور، يا وديع، إلى أين وصلت الناس؟ فسألها وديع : هل صحيح ما قالته؟ فقد تكذب أو تمزح.

- أنا رأيته معها في ذلك الوقت حين كنتُ مع أخي. أي في سنة 2007.
- وأين تضاجعا؟ وكيف؟ واضح أنها تكذب.
- أنا رأيتهما في ردهة فارغة، وكانا قريبين من بعضهما. فبلا شك أن له صديق يستره، ويغلق الباب عليهما حتى ينتهيا من المضاجعة ويخرجا.
- كل شيء وارد. الله يعلم. حبيبي، كيف استطعت أن تكلم هناء بهذه الطريقة العصبية المهينة لها! أنا مستغربة ذلك يصدر منك. ويبدو أنك لم تتغير معي فقط، بل حتى مع الناس، ويبدو فعلا عندك تصوير ضدها وإلا فأنا أعرف هناء تهاجم-وهي مخطئة-ولا تخاف من أحد.
- الضغوط تغير الإنسان.
- حبيبي، أرجوك اترك هناء وميثم في حالهما. فقد توسلتْ بي كثيرا وبكتْ كثيرا.
- لا شيء لي مع هناء.
- وأرجوك أترك عشيقها ميثم في حاله وإلا فهناء سترسل لك من تحبه لطلب الكف عنه. سأجلب لك فنجان قهوة.

كلم نفسه : لعنة الله عليكن. أنت وصديقاتك قذرات بخيانتكن، وبأساليبكن الشيطانية. أي عار جلبت لنفسي ولأهلي بمعرفتكن. يا ربي، خلصني مما أنا فيه، من هذه القذرات. كم كنتُ غبيا حين كنت وديعا الذي يثق بك ويحبك! وكم صرتِ أنتِ وصديقتك غبيات لدرجة أنني صرت أفهم ما تردن قوله! كم تطور تفكيري ومعرفتي بك وبصديقاتك وبالأساليب الشيطانية. تشابه مطابق في الأسلوب عند سميرة وكل زميلاتها. يا رب، قرب لي ساعة الانتقام والخلاص.

هي تغار من الجميع وكل مخلص لزوجته، وكل مخلصة لزوجها؛ لذلك تفشي لي أسرار صديقاتها، وتفضحهن كأنها تريد الانتقام منهن،

ورمي ذنبها العظيم عليهن وعليّ. العاهرة لا ترافق إلا العاهرة. واضح أنك، يا سميرة، بدأتِ تغارين من هناء؛ لأنك تعرفين كل الأساليب الشيطانية، وواضح أنكِ تعلمتِ من زميلاتك. فارتبطت بمن لا يُشك به من الخدمات، وتعلمت النكران والجسارة والهجوم للتستر على خطأك الكارثي.

ها يا أبا ياسمين، أكيد أنك جئت لترى هناء، بعد أن تركت نداء. هذا ما فاجأت هديل أخت سميرة وديعا به حين كان كعادته يراقب سميرة وهي في عملها في المستشفى. نظر إلى عينيها القلقين وأجابها بابتسامة أخبث من ابتسامتها : نعم، يا دكتورة، لقد جئتُ؛ لأرى هناء الأفضل من سميرة؛ لأني وحيد، فسميرة مشغولة بخريبط وكذلك مشغولة بعملها مع زملائها الرجال مجاملة ومزاحا.

أجابته وفي عينيها حقد، وفي نفسها لؤم : ما هذا الكلام غير اللائق؟

وديع : والله ما كذبت بشيء وأنت تعرفين أنها مع خريبط والرجال. ولكن غير اللائق في نظركم هو أني أقول الحقيقة التي لا تعجبكم على الرغم من أنكم تقولون ما تفترونه عليّ حتى مع ابنة عمي وحتى بعد أن سمعت سميرة كل شيء بيننا وهي مختفية عن أنظار نداء.

هديل : أنت كثير الشك والغيرة غير المبررين.

وديع : لقد منحتها ثقتي، وتركتها تدرس وتعمل. ولكنها خانت الثقة. فانصرفت لبناء علاقة مشبوهة متينة مع خريبط في وضح النهار وأمام الجميع متسترة بأنه موظف خدمات وسائق لها. أما تواجدها مع الرجال ومزاحها معهم فحدثي ولا حرج.

هديل : لا توجد صرخة أصلا، أنت تفتري وإلا لماذا لم تدافع عنها أنت.

وديع : أنا لا يشرفني الدفاع عن ذليلة مطيعة لخريبط، وشرسة معي حتى أنها تتشاجر معي بسكين أو بقطع زجاج بعد أن تحطم نوافذ الشبابيك. الغريب أنك تعرفن كل شيء ومع ذلك أنت مع أختك ضدي، يا دكتورة!

هديل : ولماذا لم تخبر أهلها؟

وديع : لأني أراهم ضعفاء مثلها مع خريبط، وأقوياء أشداء مثلها معي. وأنتم جميعا لا منطق لكم، بل تتكاتفون ضد من يناقشكم. بإمكانكِ أن تخبري أهلك وإن كان لا يمكن إصلاح ما فسد. ثم لماذا أنا أفترى على أم طفليّ ولا أخاف من أهلها! مع السلامة يا دكتورة، وأرجوك أخبري أهلك. أرجوك.

هو يرى أن ما تذم سميرة به زميلاتها، هو سلوكها الذي تفعله معه بالضبط؛ فكلهن يرتبطن بمن يرين أنه لا أحد يشك به وخصوصا الطبقة الفقيرة المعدمة؛ وكلهن يبررن خيانتهن لأنفسهن؛ ولذلك قالت عنه إنه ضعيف جنسيا على الرغم من أنها كانت تعاني من قوته الجنسية؛ وكلهن يتميزن بالصلافة والوقاحة والمواجهة والمهاجمة للتستر عما يفعلنه من أخطاء، الهجوم بوقاحة من أجل الدفاع عن أنفسهن مستعينات بتهديدهن للناس بأهلهن؛ ويتظاهرن بالخجل أمام المعارف، فكلتا أختيها كانتا تتظاهران بالخجل من وديع لدرجة أن أختها هديل لم تركب معه مدعية أنها تستحي من الركوب مع رجل، وكذلك أختها جنان. والحال أنهن يمازحن الرجال الغرباء كثيرا، ويخرجن معهم ويسافرن.

كلم وديع نفسه مذهولا : صدفة كانت الصرخة في الوقت الذي تركتني وذهبت لأهلها! وصدفة خريبط يفعل ما أخبرها به كذاك المصور الذي كانت تتبادل معه الابتسامات وحركات وجهيهما ونغمات كلامهما في اليوم الأول، وحين انتبتُ توقفا عن الابتسامات في اليوم التالي! وصدفة كانت تخصص أغنية (ما في أعيش إلا معك ما في أكون إلا لك) نغمة لهاتفها! وهذا التوافق بين معنى صرخته ومعنى الأغنية الواضح! وصدفة أنها تنسى الأحداث معه حين أسألها! وصدفة تذكر اسمه! أ يعقل كل هذا! وصدفة هي عفيفة صادقة وسط نساء بلا أخلاق! صدفة! كم تمنيت أن أتشاجر مع خريبط كما تشاجرت مع ميثم. هناء تسمي ميثم صديقها، وسميرة تسمي وخريبط سائقها! حين أضغط على سميرة وهناء يظهران

لي الرقة واللين، وحين ألين معهما يظهران الضغط والشد معي! والغريب أن سميرة تعير هناء، وهي تتصف بما تعيرها به. والشيء الغريب الآخر هو أن مكان عمل سميرة وخريبط مكان عشقهما، وبيتي الجديد مكان ممارستي الجنس مع زوجة خريبط، وبيتي القديم فندق لسميرة. يا ربي، رحمتك.

على الرغم من خوف سميرة مما يخطط له وديع إلا أنها تضحك وتفرح بتفاعل وديع معهما، وتفرح ياسمين وسيف لفرح أمهما وتعلوهما ابتسامة تتلاشى تدريجيا مع سرعة تفكيرهما بمزاج ابيهما الذي يتعكر برؤية خريبط أو ما يذكره به كذلك من كوابيس أبيهما التي يرى فيها خريبط وسميرة، فيعلوهما الغم كأمهما وتتضح صرخات مستغيثة في عيونهم وكلامهم وتصرفهم. لم يستطع تغاضي وديع عن سميرة وخريبط صد ألم ذكريات ماضي سميرة وخريبط، ولا مقاومة رؤيته أو ذكر اسمه حتى. وهذا ما أحزن ياسمين وسيف وعذبهما كثيرا، وما أرهق سميرة وخريبط وأزعجهما وأخافهما وأنعكس سلبا على غنيدة وأطفالها، وأنعكس إيجابا على علاقة وديع بغنيدة. صارت سميرة ترجع بألمها إلى خريبط، وخريبط يعكسه على زوجته غنيدة، وغنيدة تهرب إلى وديع ليسعدها.

الفصل الثامن

قضي وديع ومنى أربعة أيام معا مشبعين بالحب والسعادة. كل منهما أخذ إجازة من عمله مدعيا أن له سفرة لعمل في بغداد. الحادية عشرة صباح يوم الخميس، احتضنها وقبلها وهما لا زالا في فراشهما في بيتها : يا حبيبتي، لقد عيشتني أياما كلها متعة وراحة وحب ورومانسية. يعز عليّ أن أذهب اليوم وأتركك.

منى : لا أعرف كيف سأكون من دونك. يا قلبي، لقد منحتني الحب والسعادة والأمان، وعوضتني عن كل ما فاتني. لقد كنت لي زوجا وحبيبا وأخا وأبا. وأنا محرومة من كل هؤلاء. لن أنسى فضلك عليّ. لقد وقفت إلى جانبي وتزوجتني؛ كي تسترني من الفضيحة. ومنحتني حبك واحترامك وثقتك في الوقت الذي يريد أخي وابنه وكل من يعرفني استغلالي ماديا وجسديا.

- يا مجنونة، بل تزوجتك؛ لأنني أحبك. فأنت جميلة جذابة.
- بل لأنك رجل وكلك نبل. لم تستغلني ولم تطمع فيّ ولا في ذهبي ولا مالي. أنا واثقة من أنه لا يوجد من يمكن أن يرجع لي ذهبا أمنته عنده! وأنت أرجعته لي بعد أكثر من سنة.
- والله ما أخرته كل هذه الفترة إلا لانتظاري لطبك مني بإرجاعه لك، وبعد أن يئست من طلبك أرجعته لك. فأنت التي منحتني ثقة كبيرة.

ولم تطلبي مني ارجاع الشيك. وها أنا أنتظر أن تطالبيني به كي أرجعه لك.

- والله لن أطالبك به، ولن أقبله منك أبدا. يا حبيبي، لقد سلمتك نفسي، فكيف لا أسلمك مالي! ثم أني تجاوزت الخمسين من عمري، فلا أحتاج لكل ما أملكه؛ ولذلك الشيك لك، وقد سجلت باسمك قطعة أرض سكنية تليق بك. ولا أريد أن أسمع منك شيئا بالرفض.
- لن أقبل الشيك ولا الأرض.
- بل ستقبل، فأنا سأموت وكل ما أملكه سيستولي عليه ابن أخي. وأنت أحب إليه منه، ثم أنه سيبقى له هذا البيت وقطعة أرض أخرى.
- ماذا؟ لماذا هذه الدموع! يا مجنونة، أنا معك.
- حبيبي، أنا أعلم أن زوجتك تزعجك كثيرا ومع ذلك كنت معي ألطف إنسان. أنا أعرف كل ما بدخلك من أحزان.
- ماذا تعرفين؟
- أعرف أنك تعاني من زوجتك العنيدة الخائنة.
- العنيدة الخائنة! كيف؟
- تأتي إلي امرأة تبيع أشياء النساء، وهذه المرأة تعمل مع سميرة في القسم نفسه. وهي تخبرني بكل شيء.

أخير ومن خلال تلك العاملة في قسم سميرة وعن طريق منى، عرف وديع أن سميرة تنازلت عن شروطها؛ لأن أمرها انفضح، وبان عارها، واشتهرت بعلاقتها مع خريبط وخصوصا حين عير أحد أقاربها أهلها؛ وأنها ندمت كثيرا وتريد نسيان ماضيها مع خريبط والعيش معه بعد أن كانت تريد الخلاص منه والتمسك بخريبط، ولكنها واثقة من أنه سيطلقها؛ لذلك هي تعيش أسوء عيشة، وكل همها البقاء معه؛ وعرف

كذلك أنها اختارته؛ لإبعاد الشك عنها، وبذلك تشبع حاجاتها الجسدية وتتكبر على وديع، ولأنها تحب القوة والعنف والأمر والفرض والقسوة والاذلال كما فعله خريبط معها، على العكس من وديع الذي يكثر الغزل فيها، واللين والرقة؛ وعرف أن هناء كانت تريده أن يستغلها جنسيا؛ وعرف أن خريبط كان يخافه إلا أن سميرة كانت تقنعه بأن يرتبط بها مدعية أن زوجها إنسان جبان، ولا يجرؤ على فعل شيء؛ وتيقن بأن خريبط يتفاخر بنفسه أمام أصدقائه من خلالها؛ كونها هي المتمسكة به والراضية عليه والمختارة له والتي لا تتركه ولا تبدله في كل الأحوال والأوقات.

أدرك وديع أنها أُجبرت مكرهة على الرجوع له تحت ظروف قاهرة؛ ولذلك كان لا بد لها من الكذب عليه وغشه وخداعه ومراوغته؛ لتصلح ما فعلته سابقا وندمت عليه وتلاءمه مع ما أُجبرت عليه. وهو نفسه الأمر الذي لم يتوقعه خريبط أبدا؛ كونها تعشقه بجنون، وتلبي كل رغباته، فهي تستمتع بأن تكون عبدة مطيعة له، وهو مستمع بإهاناتها وجريها وراءه لاهثة؛ ليروي غلة نفسه غير المحترمة من قبل الناس ويعوض نقصه ويتخيل نفسه شيئا مذكورا.

أخبرته منى أن خريبط تفاجئ بخبر رجوع سميرة له؛ كونه كان منشغلا بحل مشكلته مع زوجته وأهلها وأهله، وما كان منه أولا إلا أن رفض البقاء معها، ولم يردها ولكنها توسلت به كثيرا وكأنها قبلت قدميه فجاء إليها وهو خائف من أنها ستثير له مشكلة مع زوجته وأهلها وأهله بعد أن تأكد تماما من أنها وصلت لدائرتها. فافترى على وديع؛ ليهينها

ويهينه بها، وليبعدهما عن بعضهما. بالإضافة إلى أن زوجة خريبط لم تسمح له بالخروج من البيت في الوقت الذي كان يذهب به لها.

فهمتْ سميرة موقف أهلها وموقف خريبط في تركه لها والجري خلف زوجته غنيدة، وهذا الموقف أزعجها وأحزنها؛ كونها تركت زوجها، وداست على سمعتها، ومنحت خريبط المال الكثير، وتخلت عن كل شيء من أجله؛ وهو-بالمقابل-لم يرد عليها حين تتصل به هاتفيا. ولم يصبر على فراق زوجته يوما واحدا. بل إنه قد لامَها وحملها مسؤولية غضب زوجته عليه وغيابها عنه، ووبخها كثيرا وتجاوز عليها، واسمعها كلمات جارحة قاسية وعيرها بأقذر عار. وعلاوة على ذلك أن وديعا كان يوصلها إلى دائرتها، وخريبط يراهما، وهو حذر منه؛ كونه يعرف أنه قد أساء إليه بصرخته عليها. وفهم موقفها منه، فهي ليست كما كانت؛ لخوفها من وديع وحذرها، وغضبها من موقف خريبط السابق.

خريبط لم يحتمل الوضع، ولم يحصل على مال كما كان يحصل عليه من سميرة سابقا، ولم تنظر له أقبح النساء، ولم يستطع الارتباط بأي امرأة، وبعد عدة محاولات لم يحصد إلا الفشل، فلا شكله يساعده ولا وظيفته تؤهله ولا أسلوبه يحببه للنساء؛ لذلك قرر الرجوع إلى سميرة، وكذلك غيرته عليها من زوجها، وتعاليها عليه أمامه قد ساهم في تحريكه نحوها. فهو قد أعتاد على دلال حور العين منها، وهي الآن لا تستطيع أن تمنحه جزء من مئة جزء مما كانت تمنحه سابقا؛ لوجود وديع، وإيمانه بوجود خطأ بينهما، ولغضبها على خذلان خريبط لها، ولنيل ثأرها منه ومن زوجته، فهي الآن لا تستطيع حتى الاتصال به هاتفيا؛ لذلك شعر بالغيرة وبالجنون. لذلك ضغط على سميرة من خلال إرسال رسائل عن

طريق وديع متأملا مجيئها له وتوسلها به وإذلالها وتخويفها؛ كي تكون كما كانت سابقا. كان يتمنى أن يطلقها وديع، فتكون خادمة له كما كانت.

كلمها ودموعه تروي آلامه : يا منى، لقد عشتُ أياما عصيبة. كنت أشتاق كثيرا إلى ياسمين وسيف كشوقي لسميرة؛ وكنت أفكر في طفولتهما وبراءتهما واحتياجهما لي كتفكيري بحاجة سميرة لي ماديا ومعنويا. ثم صرت أريد أن أجبر نفسي على كرهها والابتعاد عنها، ثم صرت مجبرا على تقبلها والعيش معها مع العلم أن نفسي لا تطيق رؤيتها، ثم صرت مجبرا على مجامعتها كأنني أريد أن أنتقم من خريبط؛ لأنني أراها زوجته.

أجابته بلفظ رقيق وهي في أحضانه تمسح دموعه وتتودد له، وشعرها الكثيف ينهمر هائجا حول وجهها الباسم مرتدية ثوبا شفافا يشع جسمها منه : لم يبقَ شيئا لطلاقها. فقد كبرت ياسمين. ولكن أعلم أنها هي أيضا تعيش صراعا قاتلا. فبعد أن أرادت الخلاص منك، والأرتباط بخريبط، صارت تريد التمسك بك والخلاص من خريبط حتى أنها صارت تطرق باب السحارات؛ كي تبقى معها ولا تطلقها.

- والله لن ينفعها سحر أبدا. لقد أعطيتُ لأخي وكالة عني؛ ليطلقها بدلا عني إن حصل لي شيء أو سافرتُ. وأوصيتُ أهلي إن متُ فلا تسمحوا لها بالمجيء إلى عزائي.
- لا تحزن، يا حبيبي، فهي خائنة ولا تستحقك. لاحظ أن الله سيجزيك خيرا؛ كونك سببا في توبتي واستقامتي وسعادتي، ولاحظ أنني أعشقك

وأريد إسعادك بكل شيء، أنا أدفع أموالا إلى تلك العاملة كي تتجسس على سميرة كي أعرف ما تحب أنت وتكره، حتى أفعل ما يسعدك.

****

كل منهم ما زال الصراخ يتردد صداه في أنحاء روحه كأن السنين لم تمر، كل منهم مسجون في قلقه المحصور مع ذكرياته عاجزا عن فعل شيء لشجونه؛ فسميرة قد وخطها الشيب وعكر مزاجها ندم الارتباط بخريبط وندم اهمالها لوديع، وأتعبها البحث عن الخلاص من خريبط والتقرب لوديع، وأرهقها وأرقها خوفها من أن يخطأ خريبط أمام وديع ومستقبلها مع وديع وتخطيطه لطلاقها، وأحرقتها غيرتها على وديع من هناء، وغيرتها من عيش خريبط وزوجته مستقرين.

وصراخ وديع تمثل في أنه لاح القليل من الشيب رأسه وتعكر المزاج مع سميرة فقط لندمه على سماحه لها بالعمل، وعلى عدم طلاقها في يوم الصرخة نفسه، وعلى عدم زواجه من سندس؛ وأتعبه فضوله للكشف عن أسرار سميرة وخريبط، يوجمه مصير ياسمين وسيف، ويتوق إلى عائلة مستقرة وحب وصدق ووفاء وأمان.

وصراخ خريبط يتضح في فضح صرخته أمام وديع ومغامراته بعد رجوع سميرة لوديع، وندمه على الارتباط بها وحصوله على مشكلات مع أهل زوجته، وحسرته على تغير زوجته معه، فبعد أن كانت امرأة بسيطة بريئة ودودة له هادئة الأعصاب مرتاحة البال، صارت امرأة عنيفة شرسة سليطة اللسان مشدودة الأعصاب مشغولة البال كثيرة الكلام مكثرة الشكوى ظاهرة الشك والعدوان في كل شيء، عاشقة الجدال معه، وجاهزة الهجوم عليه؛ وحزنه على تمرد أطفاله عليه (حردان، مكي، سعدية، خالدية) فكلهم صاروا بلا براءة ولا حب ولا رضا ولا استقرار ولا أمان ولا فرح ولا سعادة ولا انسجام. لقد انشحنوا بالكرة والحقد.

وصراخ غنيدة يتجلى في ندمها على خدمة زوجها خريبط وطاعته في كل السنوات الماضية، وانزعاجها منه وتحمل العيش معه والصبر على بعدها عن عشيقها وديع، وتمنيها طلاقها من زوجها وزواجها بعشيقها، وخشيتها من أن يعكر أطفالها الأربعة حياتها التي تفكر بها مع وديع، كرهها لخريبط وسميرة وتمنياها الانتقام منهما.

وصراخ ياسمين وسيف يتضح في توقهما للعيش كبقية الأطفال بين أبوين منسجمين يحبان بعضهما ويهتمان بأطفالها وببعضهما. كصراخ أولاد خريبط. جميعهم تعلموا الكذب والنفاق، وعرفوا الغش والخداع، اتقنوا الشر والشيطنة، وأكثروا من الزعل والعراك، وسلكوا سلوك المرضى نفسيا، ومهاجمة العدو تشفيا، وتلونوا بألوان الشياطين، وحملوا الضغائن، وفقدوا مبدء التضامن، ومالوا إلى البهتان، وتزودوا بسم الثعابين، وأجادوا تناطح الثيران، ولجأوا إلى اختباء الجرذان، وغُرموا على ما اقترفته أيدي والديهم، ودفعوا لهم سعادتهم أثمانا، فاجتاحهم الحزن، واستقرت فيهم الكآبة، واستوطنهم المرض والشر.

وصراخ منى يرتبط كله بحبها لوديع، نادمة على حياتها بلا وديع وعلى ما فعلته به أول تعارفهما، خائفة من أن يتركها، ومرعوبة عليه من سميرة وشرها وكيدها. وصراخ سندس قبل زواجها متوجه صوب حبها لوديع ولهفتها في ميله لها وزواجه بها، وبعد أن ترملت أعرضت عن حبها لوديع خوفا على سمعة طفليها، مركزة كل اهتمامها لطفليها.

****

غرق في تفكيره، ينظر إلى كثرة علب المكياج الجديدة والقديمة الموضوعة حتى مع جزامة الأحذية، ويقارنها بشكل سميرة المختلف عنه حين تكون في عملها، ويتذكر أنها صارت تعاني من اختلاف تعامله معها، فلا يقبلها ولا يتغزل بها غير مدركة أن شكلها صار قبيحا كحقيقتها. فقد أبيض ما لم يسقط من شعرها، ولا تزال تقصره؛ لترتاح من غسله، وأسود وجهها وتجعد كتجعد عنقها، وأصفرت أسنانها، وأزداد

وزنها وكبر بطنها وثدياها وعنقها، وضعف رجلاها. نظراته لها مصحوبة بشرود ذهنه، يقول في نفسه : عندما أسألها لماذا لا تضعين المكياج والعطور وأنت معي؟ تجيبني بحدة وابتسامة مصطنعة : أنا معك على طبيعتي.
الأولى بها أن تتجمل لي أنا فقط. وليس ما أجابتني به، وهو أنها تريح وجهها من المكياج حين تكون معي. وكذلك هي تريح ظهرها بعدم لبس حذاء ذي كعب عال. فأهملت ما ألح عليه، واختصرته فقط لعملها وخريبط. كل شيء تغير، صارت المرأة تتزين لجميع الرجال من الزملاء والاصدقاء والغرباء ما عدا زوجها. يلعنني ويلعن هكذا زوجة.

****

بضرباته العنيفة، أسقط وديع سميرة أرضا مغما عليها وهي تردد اسم الله، وهو لا زال يبكي ويصرخ حتى أنهكه التعب فسقط على الأرض. وفي الصباح، فتح عينيه وهو يتصبب عرقا على الرغم من برودة جو الشتاء، فوجد أباه وأمه وأخوته مجتمعين حوله، أحس بوجع في يده ورأسه. بكى، وحاول إخفاء وجهه عنهم.

بقي في فراشه حتى اليوم الثاني يفكر بحلمه الذي أعده رسالة واضحة له مسترجعا كل ما خطط له ليلة أمس التي أكثر التفكير بها وهو في فراشه مفتخرا بنفسه مرددا : من مثلي وأنا فنان ماهر في صيد النساء! اقتربتُ من اصطياد زميلتي سلمى الجميلة جدا على الرغم من أنها قوية جدا، وأبوها معها دائما. غدا أو بعد غد سنتبادل القبلات. مشتاق لصيدك، يا سلمى التي لم تقبل بكل من خطبها من زملائنا وغيرهم، وحين يعرفون أني أوقعتها سينذهلون. وبلا شك لن يتزوجها أحد، وبذلك ستبقى لي. الآن أنا ساحر النساء، لا مرأة تقاومني. تذكرتُ. ماذا لو أخطأت غنيدة باسمي أمام خريبط، سيطلقها أو يقتلها، أو سيعيش الجحيم الذي عشته. وهل أتزوج أنا غنيدة! هي مسكينة أحبتني بصدق، ولكني لن ألين وأرق. وماذا عن هناء؟ هل أستغلها؟ لا. ولكن أريد أن أكون رجلا مرتبطا بمئة امرأة.

أظن أنني تجاوزت الستين امرأة، لا، بل سبعين، أو أربع وسبعين. لأتذكر صيدي من النساء أولا، ثم المستأجرات مع كامل وعماد. فلأبدأ بمنى قبل أن تصبح زوجتي الثانية، وكرستل ومونيكا وإيلينا وفاتن وسحر وفاطمة ونجاة وأشواق...

ما زال يعد حتى غلبه النوم، فنام، ثم هب من نومه مرعوبا مرددا : اتركني، أيها اللعين، اتركني، يا كامل، لعين فاسد كلب أنت، اتركني.

قص وديع ما رآه في منامه على الحاج علي : يا حاج، لقد رأيت في منامي أقذر إنسان عرفته (كامل) بخلقة قذرة بشعة مقززة ينهش بإحدى يديه المخيفتين لحم الموتى والجيف والقذارات، أما يده الأخرى فكان يمكسني بها ويجرني إليه قاصدا اسقاطي في مستنقع قذر حيث هو فيه؛ ولكن الشيخ أحمد الوائلي والشيخ الشعراوي يجراني من يدي الأخرى محاولين إنقاذي. كل من الطرفين يجرني إليه. والشيخان يأمران كاملا بترك يدي، وكامل يصرخ عليهما اتركاه أنه لي. حتى أخرج كامل سلاحا ووجهه نحوي، وإذا بالشيخين يحمياني.

فرح الشيخ بهذا الحلم، وبارك لوديع، ونصحه بأن يتوب ويستقيم ويرجع إلى ما كان عليه قبل أن تغيره سميرة بخيانتها. ووديع يصرخ مستغربا أ يعقل أن يريا الصلاح والخير فيّ بعدما فعلت ما فعلت! لقد فعلت الكثير من الكبائر. لقد زنيتُ كثيرا. هل أستحق دفاعهما عني! والله لن أكون إلا عند حسن ظن الشيخين. سأصحح مساري، وأتوب وأكفر عما فعلت. أعاهد نفسي، وأعاهد الله أن أكون مثلا في الاستقامة والصلاح، ولن أتعدى حدود الله مهما حدث معي أبدا. يا ربي، اقبل توبتي.

اشترى وديع أرضا زراعية مجاورة لأرض الحاج علي، وبنى له دارا عليها. وصار يسكن في داره الجديدة يومي الجمعة والسبت، ولا يزور الحاج والحاجة إلا ما يقارب ساعة واحدة خلال هذين اليومين. انصرف إلى العبادة والصلاة. والحاجة تجبره على تناول إفطاره عندهم، وتسلمه طعاما؛ ليتناوله في سحوره. لم يترك الحاج وزوجته وديعا. فقد أعادا له

شيء من البسمة وأخرجاه مما مر به من زهد ولكنه لا يزال يكثر العبادة والدعاء. يرجع من عمله إلى بيته يصلي ويناجي ربه حتى صلاة المغرب، ثم يتناول إفطاره، وبعدها يعود للصلاة حتى منتصف الليل. ولا زالت سميرة لا تعرف ما يجري لوديع. وأخيرا، نجح الحاج وزوجته في جعل وديعا طبيعيا على الرغم من كثرة صلاة.

****

الحادية عشرة مساء يوم 2013/7/21 رجعت سميرة من زفاف ابنتها ياسمين. وجدتَ وديعا في غرفة نومهما محمر العينين. تقدمت نحوه : وديع حبيبي، ماذا جرى لك؟ أ تبكي؟ ما كان من وديع إلا أنه بادرها بالضرب بعنف. وهو يردد : لعينة حقيرة، ضيعتني وضيعت أولادي. الله لا يوفقك. الله ينتقم منك. لا زال يرتعد كأنه يريد أن يأكلها. يا ربي، ما هذا البلاء الذي أنا فيه، ما ذنب المسكينة التي تزوجت وهي طفلة! يا ربي، لا اعتراض على حكمك، ولكني أتألم لفقدي طفلتي المسكينة، ولبقاء الخائنة معي.

صباح اليوم التالي، وصل وديع إلى بيت الشيخ علي، وبعد السلام. تهلل وجه الحاجة وابتهج وأقبلت عليه مرحبة، وسألته بلفظ رقيق : ماذا بك، يا بني؟ أراك لست على طبيعتك؟ أجابها بانكسار وحزن : يا أمي، البارحة ضربت سميرة بعنف بعد أن رجعتْ من زفاف ياسمين. ضربتها؛ لأنها هي سبب ضياع طفلتي، وزواجها، فقدت ابنتي، وأبقيتُ عدوتي معي.

الحاجة : يا بني، الحمد لله، إنها تزوجت واستقرت. وتفرغتَ أنت لنفسك؛ لتعش حياتك، وتعوض نفسك ما فاتك. هذه هي اللحظة الذهبية التي كنا ننتظرها منذ خمس سنوات.

وديع : أي حياة وأنا أزوج طفلة من أجل أن أعيش أنا وأتزوج!

- بل من أجل أن تحميها من القردة الشريرة الخائنة. يا بني، إن دموعك هذه تذكرني بك حين كنت تبكي على حبك لسميرة أول مرة. وأنا أقول لك ستعيش وترتاح وتنسى كل شيء وتندم على ما فاتك.
- ولكن، يا أمي، هي طفلة مسكينة، تتحمل خيانة أمها. والآن أنا أزوجها كي أتزوج أنا! طفلة مسكينة تتحمل ذنب أمها ورغبة أبيها!
- يا بني، لقد ضحيت بنفسك حتى تزوجت. والله لها ولك. والآن فلنبحث لك عن زوجة، وستندم على ما فاتك من أيام بلا زوجة. لقد وجدت لك امرأة جميلة من عائلة راقية. فلنتوكل على الله.
- زوجتها، وهي قاصر، وأنا غير مقتنع بهذا الزواج ولا بزوجها وأهله، ولكني أراه أهون الشرين. زوجتها وفي عيني دموع، وفي قلبي جراح، وفي داخلي صرخات، كلي حسرات على طفولتها، وقلق على مستقبلها، وغضب على أمها اللعينة الذليلة، ورعب من أن يعيرها أحد بأمها الذليلة الخائنة.

****

صباح يوم الجمعة الأخير من شهر تموز، وصل وديع إلى بيت الحاج علي. وجد عندهم رجل دين وثلاثة رجال، ثم وجد سندس وبشرى، وهما متزينتين كأنهما عروستان. وديع مستغربا : صباح الورد والعسل، أيتها العروستان. ماذا يحصل اليوم؟ تزيين المكان والناس وعطور..

بشرى : اليوم سنفرح بعرس عزيز.

وديع : من؟ أ هو الحاج علي!

بشرى : بل هو أخي الغالي.

وديع : أخوك! من؟

بشرى : أخي وديع المغفل الذي لا يفهم معنى خجل عروسته سندس.

وديع : ماذا! أ تمزحين أم ماذا؟

بشرى : لا أمزح. أتفقنا كلنا على أن نفاجئك بمفاجئة سارة. ورجل الدين والشهود جاهزون.
وديع : شكرا لكم. والله أنا سعيد جدا. وسأترك كل شيء، وأعيش بجوار أبي الحاج وأمي مع زوجتي سندس، ولكن أريد أيضا أن تكون منى معنا.
بشرى : وسندس لا تتدخل في قراراتك.
سندس : بل أنا معك فيما يسعدك. افعل ما يسعدك، وأنا سعيدة.
فرح وديع، وقال : فعلا الله عوضني خيرا. أسأل الله تعالى أن يوفقني في أن أعدل بين منى وسندس؛ لأن سندس ستكون هي مقر نفسي وأم أطفالي، وأسأله تعالى أن يرزقنا بنتا أولا كي أكني سندس بأم بشرى. اسم أختي بشرى، وسيكون اسما لابنتي.

الفصل التاسع

على غير موعد، دخلت منى على بشرى في غرفتها في الشركة.
وبادرتها بالكلام : يا بشرى، أنا ضيفتك بأمس الحاجة إليك، وزوجة وديع الذي يقول عنك أخته.
أجابتها بشرى محدقة في عينها المملؤتين بالقلق والشفقة : أهلا بضيفتي، وزوجة أخي. تفضلي.
منى ووجها شاحب متوسل : أرجوك ساعديني.

- سأساعدك طبعا فأنت زوجة أخي وديع.
- والله ما جئتُ إليك إلا من أجل أخيك وديع.
- إذن تكلمي.
- عاملة خدمات قسم سميرة تتردد عليّ لتنظيف بيتي مقابل شيء من المال أعطيه لها، وأشتري منها بعض الأشياء. وهي تخبرني بكل أخبار سميرة، وأنا كنت أخبر وديعا.
- أخبرني وديع بذلك.

- قبل يومين أخبرتني أن سميرة في مأزق. فحمو ياسمين عرف بعلاقة سميرة بخريبط، وصار يكثر اللوم على زوج ياسمين، وقد يطلقها.
- ماذا؟ هل أخبرتِ وديعا؟ سيموت إن عرف بهذا الأمر.
- لا، لم أخبره؛ ولهذا جئتُ إليك. فلا أريد أن أرهق وديعا.
- أخبريني تفصيلا.
- لم تستطع سميرة إخبار وديع بما أخبرتها به ياسمين في أن أهل زوجها يلومون ابنهم كثيرا على زواجه منها؛ ويعيرونه بأم زوجته التي هي سميرة، قائلين له : إن أم زوجتك خائنة لزوجها مع موظف الخدمات، وإن أبا زوجتك وديع عديم الغيرة على زوجته، لذلك يجب أن تطلقها؛ لأن العرق دساس، ونحن نستعار منها ومن أهلها، وسنستعار منك أيضا إن لم تطلقها.
- وما ردة فعل سميرة؟
- لا خيار لسميرة غير أن تعيش صراعا قاتلا مع نفسها، ولوما كبيرا على نفسها، وكذلك لوما من قبل ابنتها؛ وتعاني من نظرة ابنتها لها التي كلها انكسار وتحسر وغضب عليها. وياسمين تريد أن تخبر أباها؛ كي يثأر لها، ويرد اعتبارها، فهي غاضبة من أهل زوجها، ومن زوجها نفسه، وترى نفسها تائهة وذليلة ولا أحد لها. وسميرة تلح على ابنتها ياسمين وتجبرها على كتمان المشكلة، وعدم إخبار وديع.
- مسكينة ياسمين. لقد نزل البلاء عليها من أمها اللعينة!
- لا تعرف ياسمين ماذا تفعل. أهل زوجها يذلونها كثيرا ويعيرونها، وأمها تتكتم. وأم زوجها طردت أمها. وتعدت عليها وإهانتها، وأمها (سميرة) لم تفعل شيئا، ولم تقل شيئا غير التذلل والتوسل.
- وياسمين حاقدة على أبيها وكارة له حتى وهي تعرف من أبيها أنه تحمل أمها وبقي معها كل هذه السنين لأجلها فقط حارما نفسه من الدنيا وما فيها، وما يحب.
- حمو ياسمين يضايق كل من ياسمين وسميرة كثيرا، وسميرة تختنق كثيرا من تلك المضايقة لابنتها، وتتوقع لو حصل أي خطأ منه مع

ابنتها ياسمين، فإن زوجها وحماها سيفضحان أمرها. وبذلك فإن ياسمين ستُقتل لا محالة.

- كلاهما ليسا وديع النبيل كي يستراها كما ستر وديع سميرة وخريبط. وماذا قررت سميرة؟
- هي تحاول جاهدة إيجاد حلا؛ لذلك تتقرب متذللة إلى أهل زوج ياسمين، وتغريهم بالهدايا، وهم يستغلونها بأخذ الهدايا والمال منها. ولكنها تتفاجأ باستغلال جديد، وهو الاستغلال الجنسي الذي أراده حمو ياسمين.
- استغلال جنسي! كم هو نذل! وماذا فعلت؟
- حاولت صده بهدوء وبعقل وحكمة إلا أنه بين لها معرفته بعلاقتها بعشيقها خريبط، ثم صار يهددها بفضحها وفضح ابنتها ياسمين وطلاقها. وما كان من سميرة إلا البكاء والانكسار والتوسل والتذلل، ومحاولة إغرائه بالمال. وما كان منه إلا طردها والمبالغة بإهانتها أمام ياسمين.
- كل هذا بعد أقل من شهرين من زواج ياسمين، وسميرة لم تُطلق بعد! ماذا سيفعلون بها بعد أن يطلقها وديع!
- سيستغلونها. وإن كانوا قد استغلوها منذ البداية.
- هي مدركة إصرار وديع على طلاقها ورميها، ومدركة أنها لن تحصل على رجل مثله أبدا، ومدركة أنها أصبحت لا قيمة لها ولا جمال، ولا أحد يهواها ويقبل عليها كزوجة له، ومدركة أهمية العائلة والأطفال والاستقرار. وهي تغار من خريبط وزوجته غنيدة؛ كونهما حافظا على عائلتهما واستقرارهما.
- ولذلك هي تلجأ إلى وديع محاولة إرضاءه والتقرب له. يا منى، إياك إخبار وديع بالأمر حتى نجد حلا.
- مسكين وديع، ينتهي من مشكلة فيقع في أخرى.
- قرر أن يطلقها بعد ثلاثة أشهر من زواج ياسمين.

****

حولت الصرخة وديعا من بريء متدين يُثار بسرعة ويغضب وينفجر إلى فطن متدين يحكمه عقله وتحركه شخصيته، تدعمه مرحلة الكهولة، فنضج عقله وتغير تفكيره، وصارت كل حيل سميرة غبية ساذجة لا تنطوي عليه. عاش السعادة التي لم يعرفها مع سميرة، والأمان المفقود الذي يتوق له، وهو بين زوجتيه؛ دلع سندس التي تصغيره بعشر سنوات، وحنان منى التي تكبره بعشر، كأنهما تريدان محو آثار شيبه التي خطتها له سميرة، وهو يشعر أن الشيب يغزوه ندما على ما فاته من حياة دونهما. هما تسعيان جاهدتين إلى أن تطيب نفسه وتبتهج حذرتين من أن يأخذه الصمت وتبهته الذكرى المفاجئة للواقعة الفاجعة التي لا زال يشعر بها ويصرخ من ألمها بداخلها على الرغم من مرور خمس سنوات على وقوعها.

بابتسامة شيطانية وكظم للغيظ، طلب وديع من سميرة أن تشاهد مقطع فيديو في هاتفه يبين فيه كيفية استعادة الزير سالم ذاكرته التي فقدها نتيجة لحادثة من خلال ترديده لجملة بشكل لا إرادي؛ لأنه اعتاد على قولها حين يقاتل في المعركة، وحين عاش موقفا مشابها لما اعتاد عليه، ردد تلك الجملة دون وعي منه. ثم قال لها وهو يحدق بعينيها القلقتين : عندما كنت أصلح سيارتي في الحي الصناعي، قص أحدهم قصة مضمونها : هو أنه انتبه إلى امرأة تنظر له، فبصق عليها، ثم أخافها بعينيه. وبعد دقائق تقدمت له تلك المرأة متودده له، وقائلة له : إنك أثرت أنوثتي برجولتك التي أخفتني بها، فأنا معجبة بك. وبعد ذلك صارت عشيقته.
أ تعقلين هذه القصة؟ لم تجبه، وهو يكاد يسمع دقات قلبها. ثم قال :
وأيضا سمعتُ قصة أخرى، هي : إن امرأة تسكن مع زوجها في جزيرة لا نهر فيها، فقط بئر صغيرة. فوجدت ذات يوم سمكة صغيرة، استطاعت تربيتها حتى كبرت. ثم أصرت على زوجها بأن يدعو ثلاثة رجال

معروفين على تلك السمكة. وبعد أن جاء الرجال الثلاثة؛ ليتناولوا السمكة، صرخت تلك الزوجة قائلة إن زوجي قد جُن. والدليل دعوة للناس على سمكة ولا سمك في كل المكان الذي نعيش فيه. أ تعرفين لماذا فعلت ذلك؟ لأنها تخاف من أن يراها مع عشيقها فيفضحها. أما الآن فالناس قد عرفت أنه مجنون. والمجنون لا يؤخذ بكلامه.
وصديقي كامل اعتدى بالضرب على شاب، وافترى عليه؛ والشاب المسكين مظلوم لا يعرف ما مشكلة كامل معه. فسألت كاملا، وأجابني : إن هذا الشاب ابن أخ حبيبته، وهو على خصام معها هذه الأيام، فاعتدى على الشاب كي يخيفها ويجعلها ترجع له وتتوسله.
أنتِ ساكتة؛ لأنك فهمت ما أريد قوله. وكل تصرفاتك معي هي قديمة ومعروفة وليست بجديدة. ولكن الجديد أنك طبقت كل القصص عليّ.
سميرة : أنت فعلا مجنون. وتعشق المشكلات.

- أنا مجنون في قولك حتى من دون حادثة السمكة. أنت تشهرين بي بأني كذاب ومفتري وكثير الشك حتى إن قلت عنك شيئا، ستقولين ألم أقل لكم إنه كذاب ومفتري وكثير الشك.
- لن أجلس معك من الآن فصاعدا.
- ماذا عن ذكر اسمه في مضاجعتنا وحادثة الزير سالم؟ وماذا عن صرخته عليك وذاك الرجل الذي بصق على المرأة؟ وماذا عن الاعتداء والافتراء على الشاب ومغامرات خريبط معي؟ وما معنى قول الله تعالى : فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض؟ وكذلك معنى ما أضمر أحد شيء إلا وظهر في صفحات وجهه أو في فلتات لسانه؟

صرخ وديع بوجه سميرة وعيناه تحتقنان بالدم ووجهه مكفهر : هل وصل غباؤك لهذا الحد الذي تظنين أني أصدقك وأثق بك! الحد الذي

صرت تنكرين الصرخة نفسها أمامي وبكل جرأة ووقاحة كصديقتك هناء!

ماذا عن نقاشاتنا الطويلة طيلة الخمس سنوات منذ (2008/8/7) وحتى أمس؟ ماذا عن إجاباتك التي اعتدت عليها من سكوت ولف ودوران، وتهرب، وتغيير للموضوع، وانكار، وتبرير، وجاهزية لأداء القسم، وجوابين متضادين على سؤال واحد!

واضح أنها يئست من إقناعه بإجابة صريحة واضحة، فلجأت إلى نكران أصل المشكلة بكاملها ممهدة لذلك سلفا بمهاجمتها له بأنه كذاب وشكاك ومفتري؛ فإن قال عنها شيئا فهي قد وصفته قبل قوله، والناس سيقولون يشك بها ويفتري عليها وهو كاذب؛ ليس هذا فقط درع حمايتها، بل تستغل سلام نداء عليه ومشكلة هناء معه للتشهير به والاستدلال على أنه على علاقة بكلتا المرأتين.

أجابته بغضب : لقد أجبتك ألف مرة بأنه لا يوجد بيني وبين خريبط شيء، ألف مرة، قلت لك أنه سائق لي، ألف مرة قلت لك أني مستعدة لأقسم لك. لقد دمرت حياتي. خمس سنوات وأنا أتجرع منك السم، ألم تلاحظ أن شعري صارا أبيض! ألم تلاحظ أنني صابرة عليك رغم ضربك لي! ألم تلاحظ خشونتك معي كأنك لست وديعا الرقيق البريء الذي عرفته! ألم تلاحظ أنني أتقرب إليك وأتودد وأنت لا تهتم! ألم تلاحظ أنني عرضت عليك أن أساعدك بنصف راتبي الشهري! ألم تلاحظ خشونتك معي حين تخبرني بأنك تعاملني كما تعامل غيري من النساء أو أنني زوجة خريبط لا زوجتك، وتسجل رقم هاتفي باسم خريبط في هاتفك!

أجابها بهدوء : أنت التي لا تلاحظين أنني أتعذب من تصرفاتك وخيانتك التي تثبتينها بإجابتك على أسئلتي! ولا تلاحظين أنني كنت أحبك وأحرص عليك! ولا تلاحظين أنك جعلتني أراك عدوتي! ولا تلاحظين أنني لم أزعجك بطلباتي! ولا تلاحظين أنك كسولة معي وسخة، لم تهتمي

بطعامي ولا برغباتي كزوج لك، دائما تفعلين ما أكره! ولا تلاحظين أنك قتلتي حبي لك وبراءتي ومبادئي وحب أطفلي لي وجعلتني استغني عنهما وحرمتني من أن أنجب لهما أخوة!

لم تنفعها أساليبها الشيطانية وصوتها العالي وأعذارها القبيحة، لجأت لأسلوب التذلل والتوسل والتميع الذي لا ينطوي هو الآخر على وديع. أكدت له أنها تحبه وتصونه، وليست خائنة كصديقاتها الموظفات، وأنها لا تسلم على خريبط، وإن سلمت على مجموعة هو فيها سيجيبها "بأهلا ست" وأنها لا تذكر اسمه حتى أن أختها هديل تسميه الذي لا يُذكر اسمه. مع تكرار قول : "أرجوك حبيبي، اتركِ الماضي، ودعنا نعيش مثل باقي الناس".

ويعي تمام أن كلامها ودموعها سلاحها، فيجبيها بمستوى المشكلة قائلا : افهمي أن هناك الكثير من الصرخات؛ الصرخة التي تعبر عن حبي لك وشوقي، والصرخة التي نبهني خريبط لنفسي ولخيانتك، والصرخة التي جعلتني لا أطيقك، والصرخة التي حرفتني عن مبادئي، والصرخة التي تجبرني على حماية طفلي منك، والصرخة التي تلح علي بطلاقك. كثرت الصرخات وتنوعت وتطورت. وما عاد يفيد توسلك.

ردها وديع وهي مقبلة عليه تريد احتضانه : ابتعدي عني، أيتها اللعينة. منذ فترة وأنا أظن أنك ستذهبين إلى أهلك وتتركين لي البيت كما كنتِ تفعلين سابقا. ولكن يبدو أنك تغيرت، وعرفت قيمة بيت الزوجية، كما تغيرت أنا وعرفت قوتي حين أجبرتني على اختيار قوتي، وعرفت قيمة الحياة مع زوجة صالحة،

أجابته بود وانكسار : حبيبي وديع، أنا أحبك. وأنت أبو أولادي، وشريك حياتي.

علت على وجهه ابتسامة ساخرة : سأطلقك وإلى الآن لم تخبريني متى عرفته، وأين كنتما ذلك اليوم، وإلى أين ذهبتما، ولماذا رجعتما إلى المستشفى وبقيت أنت تنتظرينه في سيارته؟ ولا أريد الجواب؛ لأنه لا يهمني الآن. ولكني أستغرب من بعض سلوكك فلم أخذ منك المال يوما ومع ذلك عندما نتشاجر تقولين لي : "لو أعطيتك مالا لسكت" بل أنا الذي أدفع لك كل شيء، وأنا أوصلك إلى عملك وكل مشاويرك. فكيف تقولين لي ذلك! أجابته : حبيبي، هو فقط كلام مشاجرة وحالة عصبية، فلا تصدقه. والآن سأساعدك بالمال، والله لن أعيرك أو أجرحك أبدا. وأنا جاهزة لأقسم لك أنه لا شيء بيننا. يا حياتي أنت، انظر إلى شيب رأسي، وثق أنني مدمرة نفسيا ومنهارة، لقد تعبتُ كثيرا، لم أعرف الاستقرار والأمان. لقد تعبتُ ومللتُ. ولا أتذكر، لا أتذكر ما تسألني عنه. أرجوك كفى.

كفى، يا سميرة، فالأمور واضحة. وأنا مصر على رد اعتباري، وطلاقك. لن تستطيعي إخماد ثورة رجولتي، فبداخلي ليست صرخة واحدة، بل صرخات قوية ومخيفة وكثيرا ومختلفة. وتذكري أنني أملك نفسي عنك وعن خريبط بصعوبة. فقد فكرتُ بقتلكما، ولكني خفت على طفلي المسكينين. افهمي أن زلة الزوجة تضيع الأطفال، وتدمر البيوت، وتفرق الأحباب، وتُذم العوائل بها، وتُعدم السعادة، وتحل الجحيم. لقد حلقت مرتين في عالم الكرامة والرجولة والوفاء والصبر، الأولى حين صبرت

على مغامراتك الكارثية التي لا تُغتفر، فظهرت قوتي عند الألم؛ وسأحلق مرة ثانية حين أطلقك مانحا إياك حصاد ما زرعتِ وجني ما صنعتِ.

- يا وديع، لقد صرنا كبار في السن. والمفروض أن نعيش بسعادة وهدوء. اتركني في البيت وتزوج من تحب، وأنا أعطيك نصف راتبي الشهري.
- لقد غدرت لصغر همتك عن الوفاء بنفسك وبسمعة أهلك وبمصير طفليك قبل غدرك بي. وأمامك عذاب الله، فاستعدي له.

****

انذهلت هديل من قراءة ما كتبه وديع على أوراق وجدتها في مكتبته الشخصية حين كانت في بيت وديع في الوقت الذي لم يكن وديع في بيته وسميرة كانت في المطبخ. لم تخبر أحدا بمضمون هذه الأوراق، ولم تستطع الإجابة عنها، ولم تسيطر على أعصابها، احتلها الخوف والقلق على سمعتها وحياتها مع زوجها، وغرقت بالتفكير بمستقبلها ومستقبل أطفالها. فقد قرأت الآتي :

1- لماذا لم يدعني سائقك أنصرف عنك، ويأتي هو من بعدي ويكلمك؟ لماذا أمامي؟
2- إن سائقك يعرفني جيدا، وأنا أعرفه كان بإمكانه الوصول إليك والتحدث معك عن قرب فلماذا أرادك بعيدة عني؟
3- لماذا صرخ عليك؟ ولماذا كان غاضبا عليك؟ ولماذا كنت خائفة منه؟
4- أ يكون سبب خوفك منه يتعلق بك كامرأة أم كموظفة؟ ولو كان سبب الخوف منه متعلق بك، فهل كان مرتبطا بك؟ أم أنه غير مرتبط بك

ولكنه يستفزك؟ ولو كان سبب خوفك منه وظيفيا فماذا فعلت أ سرقت من الدائرة أم تسلمتْ رشوة؟ وكيف عالجتِ الموقف معه؟

5- لماذا استجبتِ له ولبيتِ نداءه؟

6- لماذا انصرف ولم أجده؟

7- لماذا تركتني سريعا بعد أن كلمك؟

8- لماذا لا تحسبين حسابا لكرامتك معه؟

9- لماذا تحسبين حسابا مبالغا فيه لكرامتك معي في الوقت الذي لا كرامة لك مع خريبط رغم من أنني زوجك ولم اتعدَ على كرامتك؟

10- ماذا كان يريد منك؟

11- السؤال المهم جدا هو أنه لماذا في هذه الفترة فقط تصرف بهذا الشكل؟ لم يتصرف هكذا من قبل قط، ولا بعد هذه الفترة أبدا.

12- ماذا حصل لك بعد أن تركتكما؟

13- ماذا دار بينكما؟

14- إن كان لم يحترمك أمامي فهل يحترمك في غيابي؟ أو ماذا سيفعل بك في غيابي؟ وما إهاناته الجديدة لك؟

15- إن كان خوفك منه أنه يهددك بشيء، فكيف ستحلين المشكلة معه وتنهينها؟

16- هل أراد أن يوصل لي رسالة؟ وما مضمون هذه الرسالة؟ هل أراد تخويفك أنت كما فعل زميلك ميثم مع زميلتك شيماء حين سألها عن عشيقها حين كان زوجها معها؟

17- ماذا قلت له وجعلته يذهب ويختفي؟

18- أ عرفك الآن أم أنكما تعرفان بعضكما معرفة دقيقة قبل أن أتزوجك؟

19- لو لم تكونا تعرفان بعضكما سابقا، فمعناها أنه كبر في عينك حين صرخ عليك، وهذه الصرخة والإهانة هي سبب تمسكك به.
20- هل عاقبته لفعلته المشينة؟ وما كانت عقوبتك له؟ وخصوصا أنك عصبية والآن تركزين كثير على موضوع الكرامة والقيمة.
21- ماذا عن أهلك؟ أ قلت لهم عن صرخته عليك أم لا؟ أ أخفت الصرخة عنهم أم أنك أخبرتهم وهم قبلوا ولم يغضبوا منه؟ وفي كلتا الحالتين هل يشرف أحد مصاهرتكم؟

أما عن اتصالك بي هاتفيا يوم السبت، فأنا أتساءل قائلا :

1- لماذا اتصلت بي؟ أنا لم أقل لك أنني سأوافق على شروطك.
2- لماذا اتصلت في يوم السبت؟ فبإمكانك الاتصال في يوم الخميس أو يوم الجمعة، فلماذا اتصلت بيوم السبت الذي هو اليوم الأخير من عطلة نهاية الأسبوع وبعده الدوام واللقاء أو رؤيته ومقابلته؟
3- هل عاقبته وأصبحت مشكلة كبيرة فأردت أن تبعدنيي عنك؟
4- هل كلمته بنفس الطريقة العدائية التي كلمتني بها؟
5- هل هو من طلب منك أن تتصلي بي وتقولي لي ما قلته ونهاكِ عني؟

أما عن ركوبك في سيارته، وتوصيله لك، وخروجك له مبكرا، فقد قلت في نفسي متسائلا :

1- ماذا حصل كي تستيقظ سميرة مبكرا الآن؟
2- إن سميرة تحب أن تأتيها السيارة إلى باب البيت، ولا تحب أن تخرج، وتصل إلى الشارع كي تركب سيارة، فماذا حصل الآن؟
3- إن سميرة تحب السيارة الحديثة وتتفاخر بها، فكيف ارتاحت بركوبها للسيارة القديمة الآن؟

4- هل تخاف سميرة على مزاجه من أن يتعكر؛ لأن شارع بيت أهلها الفرعي غير معبد جيدا؟
5- هل تخاف سميرة على سيارته من شارع بيت أهلها الفرعي؟
6- هل سميرة متشوقة له، ولا تصبر حتى يصل إليها؟
7- لماذا تذهب سميرة مبكرا؟
8- لماذا هذه الأغنية تحديدا ؟ ولماذا جعلتها نغمة لها الآن؟ وهل تريد أن تشعره بحبها له أكثر؟ وهل تريد أن تثبت له حبها؛ فهو غار عليها حين رآني معها، وصرخ عليها وهي طردتني من حياتها، وهذه هي الأغنية شيء من التودد له؟ وما هذا التوافق بين معنى صرخته عليها أمامي وطردها لي ومعنى الأغنية الواضح؟
9- هو متزوج ولديه زوجة وأطفال فماذا تريد منه هي؟ وماذا يريد منها هو؟ أ يكون بينهما علاقة أم أنها مجرد صداقة أو مجرد سائق وزبونة؟
10- أين كانا حين دخلا المستشفى في الساعة الثانية عشرة؟
11- لماذا جاءا؟
12- لماذا يشعران بكل هذا الفرح؟ وما سبب هذه الابتسامة الخجولة، والابتسامات الكثيرة؟ لماذا كانا كالسكرانين لدرجة أنهما لم يرياني؟
13- لماذا نزل من سيارته وهي بقيت فيها؟ وما الغاية من وراء كل ذلك؟
14- لماذا لم تكمل دوامها فوقت الدوام المتبقي أكثر من ساعتين؟
15- إلى أين ذهبا؟
16- عن أي شيء كلم خريبط بعض الرجال؟ أ هو شيء خاص به أم خاص بسميرة؟ وما علاقتها بزملاء خريبط؟ وإن كان كلام خريبط

مع هؤلاء الرجال يخصه هو ولا يخصها فلماذا هي خاضعة له ومنقادة إليه وآتية معه ومنتظرة؟ ولو كان يخصها هي، فما علاقتها بأصدقائه؟

17- ما الذي يجعل سميرة تنقاد إلى خريبط كل هذا الانقياد المهين وهي في غاية السعادة في حين أنها لا تتحمل أقل من ذلك معي؟

أما عن مغامراته معي، فالأمر في غاية الخطورة. فكيف أرضته كي يتوقف عن مغامراته معي؟ وبماذا أرضته؟ بلا شك أنه أخافها من خلال مغامراته معي كما حصل أمامها ذات يوم حين سأل زميلها ميثم زميلتها شيماء عن حبيبها حين كان زوجها معها، وسميرة قالت : إنه أراد أن يخيف زميلتنا بإثارته غيرة زوجها عليها وتنبيهها كي تميل لها بالخوف.
وأنا أرى أنك، يا سميرة، تستفزين خريبط وتعيرينه بالخوف مني بعد أن ضمنت قبولي به معك كي تريحي شهوتك الجنسية وتشعري بأن أحدا ما يحبك، وتشعرين بأنوثتك من خلال الإهانة والعنف والإذلال لسوقك وأخذ منك كل ما يريد من نفسك وجسمك ومالك؛ وكذلك كي تنشغلي عني وتريني عضلاتك الفارغة وكبريائك المفتعل وغناك عني.
ولكن يبدو أن خريبط مدرك لخطورة الموضوع، وأنه مل منك وخاف مني. علما أنني سألت مختصين في علم النفس عن خطأك باسمه، وأجابوني بأنك تمارسين الجنس مع صاحب الاسم بنفس الطريقة التي مارستُ معك بها.

لم تعرف هديل كيفية اقناع نفسها ووديع ببراءة سميرة، واضح أنها اقتنعت بكلامه. وصار بداخلها صراخ كله خوف على مستقبلها وأطفالها من سمعة أختها سميرة، فلو سمع زوجها أو قرأ هذه الأوراق، فإنه سيطلقها؛ ولو لم يسمع فما مستقبل أطفالها وخالتهم سميرة؟ وما حالها

وهي طبيبة وأختها سميرة بنفس المستشفى معها والناس تعرف سميرة وتراها وتسمع بعلاقتها مع خريبط؟

الفصل العاشر

يبدو أن وحش القلق قد تسلط على هديل بعد قراءتها ما كتبه وديع، فلم تستطع النوم ولا الاستقرار، ففي صباح اليوم التالي، اتصلت بوديع. وديع : ألو، أهلا ومرحبا.

هديل : آسفة أردتُ الاتصال بأمي ولكني أخطأت فاتصلتُ بك. ومع ذلك مرحبا، أبا ياسمين. كيف حال؟

- الحمد لله.
- ماذا جرى بينك وبين سميرة؟ ما هذه المشكلات والازعاجات بينكما؟ دعني أنا أسأل خريبط لماذا صرخ عليها.
- جيد سليه. والله، يا أختي، المفروض أنها تجيب على أسئلتي حين أسألها، والمفروض أن تكون صادقة، وغير مراوغة.

- أختي سميرة لا تعرف الكذب أبدا. وإلى متى يبقى خريبط يعيش معكما؟
- إلى أن تجيبني عن إشكالاتي، وتكون صادقة، وواضحة. هي تجيبني بجوابين متناقضين على نفس السؤال، أو تتهرب من الإجابة وتراوغ، أو تجيب بأنني لا أدري، أو تبكي، أو تصرخ وتفتعل مشكلة، أو تقول دعني أقسم لك.
- ما دامتْ مستعدة للقسم، فلماذا لا تدعها تقسم؟
- لا حاجة للقسم. بل عليها أن تقنعني بمنطق.
- هو لم يصرخ عليها، ولو كان قد صرخ عليها فلماذا لم تتدخل أنت وتسأله؟
- لو أنها لم تذهب إليه، والله لكنت قد ضربته، لا أسألته.
- على كل حال، ما أكثر الصرخات التي توجهت إلينا، نحن الموظفات من المراجعين والزملاء. لقد تعددت الصرخات والإهانة واحدة. فأنس الصرخة وأنس خريبط.
- ماذا أقول لك. طيب، مع السلامة، يا دكتورة. وأنا أنتظر جوابك عن صرختك بعد أن تسأليه.
- أنا أسأله! لا، وما عساني أقول له! أنس الصرخة.
- أنت قلت قبل قليل إنك ستسألينه!
- صعب جدا. كيف أسأله. الأحسن من كل هذه الإزعاجات، أن تنسى الصرخة وخريبط، وتعيش حياتك مع زوجتك وأولادك.
- هل تعلمين أني رأيتُ الكثير من الأخطاء والشكوك بينهما، ولكني لم أخبر أحدا بها؟
- وما هذه الأخطاء والشكوك؟

- سليها لعلها تصدق معك وتخبرك. فأنا لن أفضحها أبدا.
- هي صريحة جدا وصادقة، لا تعرف الكذب. وهي تخبرني بكل شيء. وقد أخبرتني أنه لا يوجد شيء خطأ بينهما. كل ما في الموضوع أنك كثير الشك. هو فقط مر بقربكما وسلم عليها مبتسما؛ كونه زميلها.
- هي تكذب وغير صريحة. وقد أخفت عليك الكثير. وهو صرخ عليها. ثم هو ليس زميلها، بل هو موظف في قسم الخدمات.
- أنت تتعب نفسك بأشياء لا قيمة لها، وتبالغ في الأشياء البسيطة. وو
- طيب، يا دكتورة. مع السلامة.

****

وفي المساء، كان وديع جالسا مع الشيخ علي والحاجة وبشرى، يتمازحون ويتكلمون ويشربون الشاي. وإذا بهاتف وديع يرن. أجاب وديع : ألو. تفضلوا. أهلا وسهلا.

- ألو. وديع أريد أن أتفاهم معك.
- تفضل أرجوك. ولكن من حضرتك؟
- أنا وليد أخو سميرة.
- وليد! طيب. تفضل.
- اتصل بي؛ لأن هاتفي غير مشحون بالرصيد.
- وهاتفي أيضا غير مشحون بالرصيد، ولا محل بقربي؛ لأني خارج البيت. قل ماذا تريد؟
- ما مشكلتك مع سميرة؟
- سلها، وهي تخبرك.
- لماذا تريد أن تطلقها؟
- من حقي أن أطلقها. والزوج لا يطلق زوجته إلا إذا كانت تستحق الطلاق.

- تطلقها إذا سرقت مالك مثلا، وليس بلا سبب. ثم هل تقبل أن أتزوج أختك وأطلقها؟
- دعك من أختي، وكلمني عن أختك؛ لأنها زوجتي. ولعنني الله إن أردتُ طلاقها من أجل سبب تافه كالأموال مثلا أو الاخفاق بالخدمات.
- إذن لماذا تطلقها؟ فقط لأنك صرت غنيا؟
- لم أكن فقيرا سابقا. ولو كنت أحب المال لأخذت من أموالها بدلا من أن أطلقها بعد أن صارت غنية. ولكن سلها ما المشكلة الكبرى، وما غلطها العظيم الذي يجبرني على طلاقها. سلها.
- أ تريد أن تشككني بأخلاق أختي صاحبة الأخلاق والأدب؟ فعلا أنك حقير. ولو مسكتك الآن لذبحتك. صرت رجلا الآن.
- لأني مؤدب ولا أريد أن أنزل إلى مستواك الوضيع، فأنت معروف. اسمع اسمع. لو أردتَ أن تمسكني فبلا شك أنت تعرف طريقي ووقت عملي، وستراني رجلا وبطلا، وسأسحق شاربك بحذائي.
- أنت لست رجلا. أنت كلب وحقير.
- لو كنت أنت رجلا، فابحث عن سبب طلاقي لأختك. والله لو أعرف بك رجلا لقلت لك عن ذنبها الذي لا يُغتفر.
- أنت حقير وكذاب ومفتري. وأختي أعلى منك مكانة وشرفا وأخلاقا.
- أنا لا أريد أن أقول ذنب أختك كي لا تشتهر ويضيع مستقبل أطفالي، ولكن لأني أعرف أنك بلا رجولة، ولن تفعل شيئا لأختك، أو أن أختك تسكتك بشحن خطك برصيد حتى، فسأقول لك سبب طلاقي لها هو وجود زميلها بيننا، وهو معتدٍ عليها، وهي متذللة له.
- أخرس، يا كلب، يا كذاب يا مفتري، يا حقير.

انهى وديع الاتصال بعد أن علا صوت وليد بالشتائم لوديع، وهو يقول : تبا لك ولأختك ولخريبط. يا ناقص الإنسانية والرجولة والوعي. يا غبي، تحقق أولا ثم هاجمني.

الحاج : هو قال عنك كذاب ومفتري قبل أن يعرف المشكلة. صدق من وصف عائلة سميرة بأنها عائلة وقحة سوقية، لا تعرف التفاهم ولا العقل. أظن أن أخاها هذا هو من زنا بزوجة أخيه.
وديع : نعم، هو. أظن أنه أخذ أجرته من سميرة قبل أن يتصل بي. وكذلك أرادني أن أتصل به أنا كي يحافظ على رصيد هاتفه الذي أخذه من سميرة.
بشرى : كيف استطعت أن تتزوج من هكذا عائلة قذرة؟
الحاج : لو كان فيه شيء من الرجولة، لبحث عن سبب إرادة وديع لطلاق أخته، ووديع الآن سهل عليه البحث، فالمفروض أن يسأل وديعا ويعرف السبب، ثم يتأكد مما يخبره به وديع. أو يناقش أخته ويفهم من تعابير وجهها لا من كلامها الكاذب.
الحاجة : يا حاج، لو كان رجلا أصلا لما فكرت أخته بالخيانة، ولما تجرأ خريبط عليهم في صرخته وفي طول علاقته بها.
بشرى : أنا متأكدة أنه كان يرى أخته متزينة ومتعطرة وضاحكة مع خريبط في سيارته، ومتأكدة أنه كان يجامل خريبط ويتودد له.
الحاج : هكذا هم الذكور، لسان طويل وكلام قذر وفعل قبيح. حتى لو كان وديع مسالما أو غبيا، فالأولى أن تخاف سميرة من أهلها وعلى سمعتهم. ولكن هي بلا شعور بالمسؤولية، ولا خوف من الله ولا من أهلها.
وديع : أهل سميرة، أبطال علي، وأذلاء لخريبط. وشواربهم مفتولة كعضلاتهم، وألسنتهم طويلة كقاماتهم، وأساليبهم شيطانية كأفكارهم، وكلماتهم قبيحة كأشكالهم، ومبادراتهم سيئة كنفوسهم، وعقولهم ناقصة كدينهم، وشرفهم معدوم كرجولتهم.
بشرى : ما هذا الوصف أ هو قصيدة! صرت مبدعا في التحليل والوصف وليس في الصبر على البلاء واصطياد النساء والتغزل بهن فقط.
وديع : بل هو مثل وصفك لسميرة بالقبح. صرتُ مبدعا في التحليل والوصف والصبر، ونادما كثيرا على اصطياد النساء والفعل المنحرف حتى أني صرت أحلم مرعوبا بعذاب الله لي وغضبه عليّ، بعد أن كنت

أحلم بخيانة سميرة وعشيقها وشوقي للانتقام منهما. صارت صرخاتي على قبح فعلي بعد أن كانت على خيانة سميرة.
الحاج : لقد تبت إلى الله وأطعته، والله غفور رحيم.

رجعت سميرة من عملها، فلم تجد وديعا. فقد أخذ ملابسه وأشياءه الخاصة به من أوراق وكتب، وترك لها البيت. وحين اتصلت به وجدت أن رقم هاتفه مفصول عن الخدمة.
رددت في نفسها : يبدو أنه قد وقع المحظور. واضح أنه ترك لي كل شيء، وابتعد عني كل الابتعاد، وبدأ حياته من جديد راميا خلفه كل الماضي الحزين.
سألت عنه في كل مكان كان يذهب له، فلم تجده ولم تحصل على نتيجة، ولا على ما يساعدها في إيجاده. فحاولت الاتصال ببعض أهله، ولكنهم رفضوها رفضا قاطعا، قائلين : إن وديع قد اختار سميرة زوجة له، بعد أن خيرناه إما نحن أو سميرة. ولذلك فنحن لم نتدخل به. ولا نريد أن نرى سميرة.
وبعد فترة، جاءت إحدى صديقات سميرة؛ لتخبرها أنها رأت وديعا مع امرأة في سيارة حديثة تقف أمام بيت فخم في حي راقٍ. وحين تحققتْ سميرة من ذلك، عرفت أن ذلك البيت يملكه وديع، والناس الذين فيه هم مؤجرين لبيت وديع؛ وأن تلك المرأة التي في سيارة وديع هي زوجته، وعرفت أنها امرأة أجمل منها جسما ووجها، وأفضل منها سمعة ونسبا.
حاولت سميرة السيطرة على أعصابها، وهي أمام زميلاتها في عملها، ولكنها فشلت في السيطرة. فحاول زميلاتها مساعدتها في الخروج من أزمتها. كل واحدة منهن تقول شيء لسميرة، فتصرخ سميرة ووجهها مكفهر وعيناها باكيتان : كأن لعنة حلتْ بي. خريبط وزوجته مستقران وأطفالهما بينهما، ووديع وزوجته كذلك مستقران، وسينجبان أطفالا. سينجبان أطفالا، وهي حبيبته..
حتى تفقد وعيها وتسقط على الأرض.

ثم تردد وهي بين زميلاتها : هو الآن يسمعها ذلك الغزل الجميل الذي كان يسمعه لي سابقا، ويهتم بها ذلك الاهتمام الذي كان يبالغ فيه لي، وسيتفانى من أجلها ومن أجل أطفالها حين تكون أما كما كان معي، ويحرص على ابتسامتها ويديمها، ويلح على إضحاكها وافراحها، وسيهتم بتمشيط شعرها، واختياره لملابسها، واهتمامه بها شكلا ومضمونا.
سيمنحها كل حبه ووفائه وإخلاصه لها وثقته بها، وسيجهد نفسه؛ ليكرمها ويجلها ويرفع شأنها، ويقدر أهلها كما كان يقدر أهلي في البداية.
بعد أن زوج ابنته، طلقني؛ ليتزوج ويعيش حياته، وهو لا يعرف شيئا عن مشكلة ياسمين مع زوجها وأهله، ولا يعرف بالتهديد الموجة لي، ولا يعرف أن لقب المطلقة يقتلني، والناس لا ترحمني. ماذا أفعل عمري وصل الأربعين؟ هو مصر على خريبط. كل حادثة بيننا يذكرني بخريبط. عليك اللعنة، يا خريبط. لقد دمرت حياتي.

وبعد أن أفاقت واستراحت، خرجت من قسمها ذاهبة إلى بيتها مع إحدى زميلاتها. وطريق خروجها يمر من أمام غرفة موظفي الخدمات، فتسمع صوت خريبط وضحكاته. وقفت وسط ممر الطريق، والتفتت يسارا إلى تلك الغرفة وكلها غضب؛ لترى خريبط يضحك وكله فرح وراحة.
بينما هي تنظر إلى خريبط وهو يضحك، وإذا بأحدهم يناديها، فتدير له وجهها يمينا، يسألها : هل حضرتك، سميرة نصيف؟
يكرر السؤال : عفوا، حضرتك سميرة نصيف؟
فيجيبه موظف زميل لسميرة كان قريبا منها : نعم، هي سميرة نصيف.
- أنا المحامي خالد طالب. موكل من قبل وديع زوج سميرة بطلاقها. وهذه ورقة طلاقها.
سألت سميرة زميلها بغضب : ماذا يا أسامة؟
وإذا به يسلمها ورقة طلاقها وهو مبتسم بلا تأسف.

بعد أيام من طلاق وديع لسميرة، أوقف وديع سيارته ونزل منها؛ ليشتري من محل، فانتبه إلى نعيم المعروف بالدعارة والسمسرة يطيل إليه النظر، ولا يستحي منه. فقال وديع في نفسه وهو يرد نظرات نعيم الحادة بنظراته الأكثر منها حدة : لقد طلقتها وارتحت منها ومنكم ومن حرصي عليها وخوفي منها وعليها منك على الرغم من أنني تعبتُ كثيرا. فقد محوتُ عاري، وصار العار عليها وعلى أهلها. ما أجمل أن أرمي العظم للكلاب. وارتاحت نفسي وابتهجت وشفي جسدي وانتعش، لا وجع أمعاء ولا معدة، ولا قلق ولا خوف ولا غيرة.

وحين وقف وديع في محطة تعبئة الوقود، أقبل إليه نعمان : مرحبا، أستاذ وديع.

وديع : أهلا أستاذ نعمان، حياكم الله.

- هل فعلا طلقت سميرة؟
- نعم، طلقتها.
- وهل انتهى كل شيء؟
- نعم، انتهى كل شيء وإلى الأبد، وسلمتها ورقة الطلاق.
- حسنا. الله يعوضك الخير.

رجع وديع إلى نفسه، فغرق في غيبوبة : نعيم أبو أحمد المعروف بالدعارة والسمسرة كابنه يطيل إلي النظر بعد طلاقي لسميرة وعلى غير عادته، ونعمان يسألني ليتأكد من انتهاء علاقتي بسميرة، ويبتسم ويفرح عندما يسمع جوابي. ما قصتهما مع سميرة؟ أظن أنهما يريدان اصطيادها إن لم يكونا قد تم اصطيادهن من قبل. الموظفات الآن في قسم سميرة هن إما مطلقات أو عوانس. وهذه فرصة نعيم في اصطيادهن وفي كسب المال من خلالهن. هذا ما فعله مع سعاد التي كان يمارس معها الجنس هو وابنه أحمد، ثم سرق منها مبلغا من المال.

أما نعمان فهو الذي أراد استغلال هناء التي تهاجم الجميع ولا تخف من أحد. وأكثر من مرة أراد أن يستغلها. كيف قبلتُ أن تكون زوجتي مع هذه القذارات! أي أناس هؤلاء! عليهم اللعنة وعلى سميرة، بل عليّ أنا اللعنة حين ارتبطت بسميرة وهي من هذه البيئة، والله حتى لو أنها أشرف شريفة فإن سلوكها سيكون قذرا ومنحطا؛ لأن محيطها الذي تعيش فيه قذر ومنحط. بالإضافة إلى أن أباها نصيف وقاحة وأخواها معروفين. ربي، لك الحمد خلصتني.

ستبقى الجراح ثائرة صارخة، وستبقى الذكريات قصصا حاضرة صامتة، وستبقى آثارها عالقة ساكنة لا تقدر على محوها الأيام والسنون، وستبقى الخطايا ملعونة مذمومة، وستبقى قدرة العقلاء مشعة محمودة، وسنقف بين يدي الله، فينصف صرخاتنا النازفة.